تفكيك ثقافة الغلوّ

أ. د.عبد الكريم بكار

رؤية للثقافة والإعلام
Rüya kültür ve medya

رؤية للثقافة والإعلام

مؤسسة ثقافية إعلامية تُعنى

بالارتقاء الثقافي والعقلي

ونشر الفكر الإسلامي الوسطي

Rüya kültür ve medya

Türkiye - İstanbul

roaya.media.tr@gmail.com +905444187758

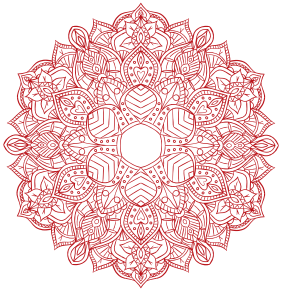

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وأصحابه، ومن والاه إلى يوم الدين وبعد:

فإن المتأمل في تاريخ الأمم والشعوب، يدرك بسهولة أنه لم يخل أهل دين ولا ملة ولا نحلة ولا مذهب ولا تيار من أهل توسط واعتدال وأهل غلو وتطرف، وهذا يعود إلى نوعية علاقة الناس بالأديان والمذاهب..التي ينتمون إليها، وإن للغة بوصفها وسيطاً معرفياً غير كفء الدورَ الأساسي في الفهم المتعدد والمتناقض للنصوص والأقوال والأحداث التاريخية، ومن هنا فإن الله تعالى نهى أهل الكتاب عن الغلو، كما نهى أمة الإسلام، وما ذلك إلا لأنه شئ متوقع وحاصل.

إن دين الإسلام هو دين اليسر والسماحة ودين مراعاة ظروف الناس، كما أنه دين العزة والكرامة والإباء والدفاع عن الحرمات، وإن الغلاة يُبرزون الوجه الثاني ويشوّهون الوجه الأول من خلال التركيز على بعض جوانب التشريع وغض الطرف عن بعضها الآخر، وإن ما يقوم به بعض الغلاة من قطع للرؤوس وحرقٍ للأحياء وأخذ للناس بالظنة، وعلى الشبهة قد أرسل للعالم عدداً من الرسائل

السوداء حتى قال بعض الأوربيين: إذا كان المسلمون على هذه القسوة مع بعضهم بعضاً فكيف ستكون قسوتهم مع مخالفيهم في الدين والمعتقد إذا حكموا وتمكنوا؟!

قد تعلمنا من التاريخ أن الغلو يتغذى على الأخطاء والتجاوزات والظلم الاجتماعي وضياع الحقوق، ولهذا فإن المعالجات الأمنية لن تكون كافية لتحجيم الحاضنة الشعبية للغلو، بل لابد من أن يسبقها ويواكبها إصلاح عام وإيجاد آفاق للتغيير السلمي، ولابد مع هذا وذاك من بيان واضح لخطورة الغلو وكونه جنوحاً عن الطريق المستقيم على المستوى العقدي والسلوكي، وهذا يحتاج إلى تعميق وتعميم مفاهيم الفكر الوسطي المعبر عن جوهر الإسلام الحنيف ووجهته المدنية والحضارية.

قامت ثورات الربيع العربي بدافع من طلب الحرية والعدالة والكرامة، والخلاص من الظلم والفساد والاستبداد، وقد دخل الغلاة على الخط، فخلطوا الأوراق والمفاهيم وأقبلوا من كل حدب وصوب لينفذوا مشاريعهم السياسية الخاصة، والبعيدة عن المشروعات التحررية التي سعى أهل البلاد إلى نجاحها، وبعض الغلاة نال من الثوار والمجاهدين أكثر مما نالت منهم الأنظمة الفاسدة، بل إن بعض الغلاة اتهموا المجاهدين بالردة والكفر، واستحلوا دماءهم وأموالهم، وكانت النتيجة إجهاض المشروعات الوطنية وتشويه الجهاد بل التعاون مع الأنظمة المجرمة وتنفيذ مخططاتها، كما هي الحال في سورية الجريحة.

إن معركتنا مع الغلاة هي معركة فكرية توعوية في المقام الأول، ويجب أن ننجح في هذه المعركة من أجل صون الحياة الإسلامية العامة من التدمير الشامل الذي يوجده الغلاة والمتطرفون حيث حلوا وتحركوا؛ وإني لأرجو من الله تعالى أن يسهم هذا الكتاب في ذلك إنه وليّ ذلك والقادر عليه؛ وهو حسبي ونعم الوكيل.

المؤلف

الرياض 2015/ 6/ 1

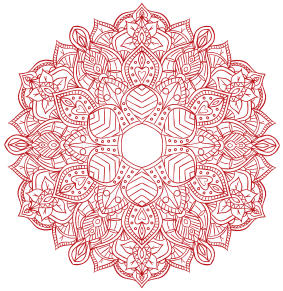

وعي الظاهرة

يصعب علينا معالجة ظاهرة الغلو من غير وعي عميق بكنهها وجذورها وامتداداتها؛ إذ إن هذه الظاهرة ليست ظاهرة بسيطة أومحددة المعالم، وإن ما فيها من نسبية والتباس بالورع والاحتياط على الصعيد السلوكي يجعل التعامل معها معقداً للغاية، ويجب أن نمتلك الشجاعة الكافية لفضح أسباب الغلو والتطرف والإرهاب في مجتمعاتنا، وهذا هو الطريق لتوصيف هذه الظاهرة، وإن من المعلوم أن كل مشكلة نستطيع توصيفها توصيفاً جيداً، هي مشكلة محلولة جزئياً.

ما الغلو؟

عرَّف علماؤنا القدامى الغلو بتعريفات متقاربة جداً، تدل في مجملها على أن الغلو عبارة عن تجاوز الحد الشرعي من خلال الزيادة والمبالغة والتشديد على النفس والغير.

إن لكل شيء حداً، أي نهاية، فللواجبات والمرغوبات والمستحسَنات حدود

أونهايات يوضحها الشرع الحنيف، كما أن النظم والقوانين والأعراف تضع حدوداً لما هو مطلوب أوممنوع، وإن تجاهل تلك الحدود وتجاوزها هو نوع من الغلو، لكن لا يكون تجاوز الحدود غلواً في الدين إلا إذا كان ما يتم تجاوزه محدداً من قبل الشريعة الغراء، فصيام الدهر وقيام جميع الليل وعدم الاستظلال بظل وعدم تزوج النساء ابتعاداً عن الانغماس في الدنيا، وتكفير المسلمين بالشبهة ومن غير بينة..كل هذا من الغلو في الدين نظراً لوجود حدود وآداب وإرشادات شرعية في شأنه.

وقد يعبر الناس عن الغلو بألفاظ تقترب منه في معانيها ومدلولاتها، منها:

١ – التشدد: ومعناه القسوة والتضييق على النفس والغير في تطبيق شرائع الإسلام مما يؤدي إلى المشقة الزائدة فيضيّع المتشدد بعض الفرائض لتشديده على نفسه في أداء بعض النوافل، أويصير إلى الملل والسأم أو ينتقل إلى الضد، فيصبح مفرّطاً بعد أن كان مفرِطاً، وفي التشدد مثل ما في الغلو من مجافاة يسر الدين وسماحته ورفقه بالمكلفين، وقد صح عنه ﷺ ما فيه إرشاد إلى البعد عن التشدد، وما يترتب عليه من محذورات وبُعد عن روح التدين الحق؛ إذ يقول: « إن الدين يسر، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدُّلجة»[١]، وقال: «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره»[٢]، وقال: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، ولا تبغِّض إلى نفسك عبادةَ الله، فإن المنبتّ لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى:[٣]

١ – رواه الشيخان.
٢ – أخرجه أحمد في المسند.
٣ – أخرجه البهيقي وضعفه الألباني.

إن المنبت يُجهد راحلته في السير، ويطلب منها من السرعة والمثابرة في المشي فوق ما تطيق، وتكون نتيجة ذلك هي الانقطاع في الطريق وخسران راحلته، وهذا هو شأن الذي يحمِّل نفسه في العبادة وأمور الشرع، ما فيه مشقة بالغة عليها.

٢- التنطع: صح عنه ﷺ أنه قال: «هلك المتنطعون. قالها ثلاثاً»[١].

في الحديث ذم لأولئك الذين يتكلفون في الكلام ويتشدقون فيه، ويستخدمون غريب الألفاظ في مخاطبة الناس كي يستميلوا قلوبهم، ثم أُطلق (التنطع) على كل من يتعمق في الكلام وفي العبادات وفي أمور العلم والتعلم وغير ذلك، وفي ذلك تجاوز للحدود المتعارف عليها وبُعدٌ عن الوسطية في التعامل مع الأشياء.

الأمثلة التي يذكرها أهل العلم لشرح معنى التشدد هي عين الأمثلة التي يذكرونها لشرح معنى الغلو، ومنها تحريم الحلال والمبالغة في التطهر إلى حد الوسوسة والخوض في مسائل لا يترتب عليها عمل مثل وقت قيام الساعة وحقيقة الروح..

أنواع الغلو:

الاعتدال والتوازن في الفكر والمعتقد والوجهة العامة في الحياة وفي السلوك العملي، من الأمور العزيزة في كل زمان ومكان، بمعنى أن الذين يسلمون من شيء من الإفراط والتفريط في موقف أو منهج أو رؤية هم دائماً قليلون، ولهذا فإن في إمكاننا أن نشير إلى نوعين من الغلو: غلو اعتقادي هو في صميم منهجية الفرد وفي صميم نظرته التقيمية للأشياء، وغلو عملي يكون في الغالب ذا طبيعة جزئية.

١- رواه مسلم.

الغلو العقدي:

يكون الغلو العقدي في معتقدات الإنسان ورؤيته الكلية للقضايا والمسائل الكبرى، وهذا واضح جداً في موقف ذي الخويصرة، فقد صحَّ أن علياً رضي الله عنه بعث من اليمن إلى رسول الله ﷺ بذهبية لم تُحصَّل من ترابها، فقسمها ﷺ بين أربعة نفر: عيينة بن بدر وأقرع بن حابس وزيد الخيل والرابع علقمة أوعامر بن الطفيل، فقال رجل من الصحابة: كنا نحن أحقَّ بهذا من هؤلاء، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال: ألا تأمنونني، وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً، قال الراوي: فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار، فقال: يا رسول الله اتق الله، ثم ولّى الرجل.. فنظر إليه ﷺ، وقال: يخرج من ضضئ هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية...[1]

إن هذا الرجل اتهم النبي ﷺ بعدم العدل في قسمة الذهبية، ومن ثمَّ فإنه قال له: اتق الله، وهذا يعبر عن زغل في عقيدته، يجعل موقفه من السُّنة ومن الشريعة على درجة كبيرة من الضلال والانحراف.

من أخطر مفردات الغلو العقدي الكلي المسارعة إلى تكفير المسلمين والحكم عليهم بالردة، وكذلك الاستخفاف بالدماء وقتل الناس على الشبهة، والمبالغة في سوء الظن بالمسلمين، ويرافق هذا في العادة تزكيةٌ للنفس مع كبر وعنجهية !

من الغلو الكلي وبسببه نشأت الفرق الإسلامية الخارجة عن منهجية الإسلام الوسطي والخارجة عن سبيل أهل السنة والجماعة، كما هو الشأن في الخوارج

١ - الحديث أخرجه الشيخان.

والرافضة وغيرهما، ولهذا فإن هذا النوع من الغلو خطير جداً لأنه أدى إلى تشتيت الصف الإسلامي وإثارة العداوات بين المسلمين وإشعال الحروب المدمرة على نحو ما رأيناه في التاريخ، ونراه في الواقع.

من الغلو العقدي ما يكون فرعياً مثل غلو شخص في الاعتقاد بصلاح شخص آخر أو حسن فهمه، ومثل غلو بعض الناس في حجم تأثير العدو في حياة الأمة (نظرية المؤامرة) ومثل غلوهم في أثر (التدريب) في الحياة الشخصية وهكذا...

هذا النوع من الغلو قد لا تكون عليه مؤاخذة شرعية، لكنه على كل حال يشكل نوعاً من الخروج على التوازن المعرفي والحضاري.

الغلو العملي:

هو تجاوز للحد وإيغال في التشديد على النفس بما لا يتلاءم مع سماحة الشرع، ويسر الدين على الصعيد السلوكي.

الغلو العملي لا يشكل انحرافاً على مستوى الاعتقاد، إذ إن من أخذ على نفسه ألا يأكل خبز الطحين المنخول، والذي أخذ على نفسه أن يصوم النهار أويقوم الليل مدى الدهر، أو يتصدق بكل ما يملك..لا يعتقد بوجوب ذلك شرعاً لا عليه ولا على غيره، وإنما يفعل ذلك لأنه في ظنه يحمل نفسه على العزيمة، ويستزيد من الأجر والمثوبة، ولا يشكل هذا النوع من الغلو خطورة على الحياة العامة لأنه يظل عبارة عن نزعة فردية خاصة، حيث لا يقوم أصحاب الغلو العملي في العادة بالدعوة إلى ما يغالون فيه، ولا بتسفيه من لايجاريهم في ذلك، ومع هذا ففي الغلو العملي نوع من الإعراض عن هدي محمد ﷺ وتكليفٌ للنفس بما يشق عليها مما

يؤدي أحياناً إلى نوع من التفريط في العبادة، فالانتقال بين الأضداد شيء مألوف في التاريخ الإنساني، وقد وجدت بدايات الغلو العملي في عهد رسول الله ﷺ، وكان موقفه منه واضحاً وحاسماً، ولدينا عدد من الشواهد عليه، أكتفي باثنين منها:

١- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادته فلما أُخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ، فقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما انا فأصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[١]

إن الغلو في هذا قد يحوِّل العبادة إلى عادة، فتفوت فضيلة مجاهدة النفس وإخراجها عن مألوفاتها، بالإضافة لما يشعه من إشعاعات سلبية، ليس أقلها جعل الناس يعتقدون أن الالتزام بالشريعة شيء مرهق للنفس، كما أنه مصدر لحرمانها من كثير من ملذاتها، بالإضافة إلى أنه قد يصبح مصدراً للغرور والتعالي على بقية المسلمين.

٢- عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل وعندها امرأة، قال: «من هذه»؟ قالت: فلانة تذكر من صلاتها، قال: «مه عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا، وكان أحب الدين إليه ما دام عليه صاحبه»[٢]

إن تلك الصحابية كانت تطيل في قيام الليل بما يجعل استمرارها عليه شاقاً جداً عليها، فنهاها النبي ﷺ، وأرسى قاعدة جليلة في الاستقامة والالتزام بالطاعات

١- رواه الشيخان.
٢- رواه الشيخان.

مدى الحياة حين ذكر أن أحب الدين إلى الله تعالى ما دام عليه صاحبه، وفي هذا إشارة واضحة إلى رغبة النبي ﷺ في تحضير أمة الإسلام ونقلها من طور البداوة إلى طور المدنية حيث إن الإنسان كلما أوغل في الحضارة زادت قدرته على المثابرة والاستمرار في العطاء المتتابع، وصار وعيه بإمكاناته أفضل.

جذور الغلو:

لا أريد أن أتحدث هنا عن الجذور الفكرية والثقافية للغلو والغلاة (الخوارج تحديداً)، فلهذا الحديث موضع تالٍ بإذن الله تعالى وإنما أريد التحدث عن جذورهم التاريخية، ونجد في هذا الإطار ثلاثة أقوال:

١- كانت نشأة الخوارج في زمان النبي ﷺ، ويستدل القائلون بهذا بما ذكرناه من قيام ذي الخويصرة التميمي بالاعتراض على قسمة الرسول للفيئ عقب إحدى الغزوات، وقد قال بهذا القول عدد ممن ألّف في الفرق وغيرهم مثل ابن حزم والشهرستاني وابن الجوزي والآجريّ.

من الواضح أنه لا أحد يقول: إن ذا الخويصرة كان زعيماً لإحدى فرق الخوارج، لكن جرأة الرجل وسوء أدبه مع النبي ﷺ هما من أخلاق الخوارج وصفاتهم الملازمة لهم حتى يوم الناس هذا، ويدعم هذا ما ورد من قول النبي: «يخرج من ضضيء هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم...» فأشار إلى أن الخوارج هم من معدن وجنس ذي الخويصرة، وأعتقد أن هذه البداية للغلو هي البداية الطبيعية حيث تتحول الفكرة والموقف مع الأيام إلى عقيدة لحزب أوجماعة أوفرقة من خلال التأصيل والتفريع والتعليل.

٢- يرى ابن كثير وابن أبي العز أن نشأة الخوارج كانت في آخر عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فقتلة عثمان أسسوا للبغي والخروج على الحاكم المسلم، ويمكن أن يقال: إن ما فعلته تلك الفئة الباغية كان خطوة كبيرة على طريق تكوين فرقة (الخوارج) لكن بما أنهم لا يملكون معتقداً خاصاً يميزهم عن مجموع أهل السنة، فإنهم لا يعدون من فرق الخوارج بدليل اندماجهم في المجتمع المسلم وتلاشيهم بعد مقتل عثمان بمدة وجيزة وإن كان ما فعلوه من سفك الدماء المحرمة ونهب الأموال المعصومة يعد خروجاً على الإمام وجزءاً من أعمال الخوارج.

٣- ذهب أكثر أهل العلم إلى أن نشأة الخوارج بدأت بالناس الذين انفصلوا عن عليّ رضي الله عنه بعد (التحكيم) وذلك أن موقعة (صفين) قد حصدت كثيراً من أرواح المسلمين، فرأى بعضهم _على خلاف في الروايات- ضرورة البحث عن مخرج أو حلّ لإيقاف القتال، فاتفق فريقا علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما على أن يختارا حكمين يكون ما ينتهيان إليه ملزماً للطرفين، فاختار علي أبا موسي الأشعري، واختار معاوية عمرو بن العاص رضي الله عنهم جميعاً، ولا يهمنا هنا البحث في حيثيات التحكيم، وما آل إليه، لكن يهمنا الموقف الذي شكل البداية الواضحة والمباشرة لبزوغ فرقة الخوارج؛ حيث إن بعضاً من جيش علي رفضوا فكرة التحكيم في حل النزاع وإيقاق الحرب، وقد ذكر ابن كثير أن الخوارج بالغوا في النكير على عليّ، وصرحوا بكفره، وجاءه رجلان منهم فقالا له: لا حكم إلا لله، فقال علي: نعم لا حكم إلا لله[١].

ثم ما كان من الخوارج إلا أن فارقوا جيش علي إلى مكان اسمه (حروراء) فأرسل إليهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فناظرهم، فرجع جماعة منهم، ثم

١- البداية والنهاية: ٧/ ٢٨٠، ٢٨١

خرج إليهم علي فأطاعوه، ودخلوا معه الكوفة، وأشاعوا أن علياً تاب من القول بالتحكيم، فخطب فيهم رضي الله عنه وأنكر ذلك، فتنادوا من جوانب المسجد: لا حكم إلا لله، فقال علي: كلمة حق يراد بها باطل..

خرج القوم شيئاً فشيئاً متجهين إلى المدائن، وأصروا على الامتناع من طاعة الخليفة الرابع عليّ حتى يشهد على نفسه بالكفر بسبب رضاه بالتحكيم، ثم قتلوا عبد الله بن خباب بن الأرت – وكان والياً لعليّ – فخرج إليهم عليّ في الجيش الذي كان قد هيأه لقتال معاوية، وقاتلهم في موقعة النهروان، ولم ينج منهم إلا القليل، ثم قام أحد رجالهم بقتل عليّ رضي الله عنه وهو يصلي الفجر..

قد كان عليّ رضي الله عنه على اعتقاد بأن الخوارج والغلاة عموماً ليسوا فرقة أو حزباً أو مذهباً (لهم وجود محدد في زمان ومكان محددين)، إنهم النتاج الطبيعي لسوء الأحوال والفهم الخاطيء للإسلام، وحين فرغ من موقعة النهروان قال بعض الناس: الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي قطع دابرهم، فقال عليّ: كلا والله إنهم لفي أصلاب الرجال وأرحام النساء، فإذا خرجوا من بين الشرايين، فقلّ ما يقاتلون أحداً إلا ألفوا أن يظهروا عليه.

ظهر الخوارج بعد ذلك مع نافع بن الأزرق لما ادعى مروان بن الحكم الخلافة، ومع نجدة بن عامر في اليمامة، ثم لم يزل منهم بقايا في الأمويين وحدود الدولة العباسية، وقد ورد في بعض الأحاديث ما يدل على أن الخوارج يشبهون بذرة شجرة خبيثة، تظل كامنة في جوف الأرض حتى تجد الظروف الملائمة لخروجها ونباتها، حيث روي عنه ﷺ أنه قال: « كلما طلع منهم قرن قطعه الله حتى يخرج في بقيتهم الدجال»[1]

١ – رواه ابن ماجة.

الغلو: الوجه الآخر:

لن نكون منصفين إذا قصرنا ظاهرة الغلو في الإسلام على الخوارج، إذ إن ظهور فرقة الخوارج قد اقترن بظهور فرقة أخرى هي (الشيعة) ويجمع بينهما على نحو أساسي أن كلاً من الشيعة والخوارج كانوا مع علي رضي الله عنه ومن أنصاره، لكن دون تبلور لشخصية أي منهما، لكنهما فيما بعد سلكتا مسلكين مختلفين تماماً، فالخوارج حاربوا علياً وحاربهم، ثم قتلوه، أماالشيعة، فإنهم قد عمقوا في ولائهم له ولآل بيته رضوان الله عليهم إلى درجة التقديس، وعلى شدة وجوه المفارقة بين الشيعة والخوارج إلا أن بينهما نوعاً من التشابه، ومنه:

١- تجتمع الفرقتان في أصل الغلو، لكن غلو الخوارج يتركز في الدين والأحكام والبراءة وشدة الموقف من المخالفين، وما استلزمه ذلك من التكفير والخروج والقتال، أما غلو الشيعة فيتركز في تقديس الأشخاص إلى حد منح العصمة لأئمتهم على ما هو معلوم.

٢- فساد الاعتقاد في الصحابة، فالخوارج يكفرون بعض الصحابة كعليّ وعثمان ومعاوية وأبي موسي وعمرو بن العاص وأصحاب الجمل وصفين أو أكثرهم، وأما الشيعة الرافضة فيكفرون سائر الصحابة، ولا يستثنون إلا نفراً قليلاً.

٣- يلتقي الخوارج والشيعة جميعاً في تكفير الذين يخالفونهم من المسلمين، وإن اختلفت أصول التكفير وأسبابه عند كل فرقة، فالخوارج كفَّروا بعض الصحابة بسبب التحكيم: عمله أو إقراره، وكفَّروا مرتكب الكبيرة من المسلمين، وكفروا كل من خالفهم ولم ينضم إلى عسكرهم على اختلاف بينهم في درجة الكفر: (كفر شرك أو كفر نعمة).

أما الرافضة فكما أنهم كفَّروا سائر الصحابة، وزعموا أنهم مرتدون إلا نفراً

قليلاً لا يتجاوز السبعة عند بعضهم، فقد كفَّروا سائر أئمة المسلمين وعامتهم.[1]

لا أريد الاسترسال هنا في بيان غلو الشيعة في تقديس أهل البيت وتكفير المخالفين، فهذا حديث يطول، لكنني أردت لفت الأنظار إلى أن الغلو بوصفه ظاهرة ذات طابع جماعي لا يقتصر على الخوارج، فهناك الشيعة وهناك بعض الطرق والجماعات الصوفية أيضاً، وإن كان غلو الصوفية يتمحور في معظم الأمور حول تقديس الأشخاص.

خطورة الغلو:

الغلو ظاهرة خطيرة، لكنها طبيعية وملازمة للوجود الإنساني، والتاريخ يوضح أن أتباع الأديان والمذاهب والمدارس والجماعات والتيارات ينقسمون على نحو مستمر إلى قسمين: غلاة ومعتدلين، ولهذا فإننا نجد أن القرآن الكريم ينهى أهل الكتاب تارة عن الغلو، ويشنع عليهم ما لديهم من مظاهره تارة أخرى على نحو ما نجده في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾[2]

إن اليهود قد فرطوا في عيسى عليه السلام حتى حاولوا قتله، كما أنهم افتروا على مريم أيضاً، وهذا وذاك شكل من الغلو لأنهم تطرفوا وجاوزوا الحد، أما النصارى فقد غالوا في عيسى عليه السلام على سبيل الإفراط، فبعضهم قال فيه: إنه ابن الله، وبعضهم قال: إنه هو الله، وبعضهم قال: إنه ثالث ثلاثة كما فنَّدها القرآن الكريم، وقد أجاد من قال:

١- الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام: ١٢

٢- سورة النساء: ١٧١

ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأمور ذميم.

وشنَّع على غلو اليهود إذ قالوا: إن عزيزاً هو ابن الله وعلى النصارى حين قالوا: إن المسيح ابن الله حيث قال – جل شأنه–: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾[1]

إن الآيات التي شنعت على غلو أهل الكتاب في الحقيقة كثيرة جداً والأحاديث النبوية التي تحدثت عن غلوهم أيضاً كثيرة، وإنما أردت الإشارة إلى ذلك ليس أكثر.

وقد حث الله تعالى نبيه ﷺ وجماعة المسلمين على الاستقامة على أمره وحذرهم من الطغيان حيث قال: ﴿ فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[2] أي: استقيموا على دينكم دون أن تجاوزا أمري وتعصوني، وقال بعض المفسرين: معنى الطغيان هنا: هو الغلو من خلال الزيادة على ما أمر الله به والزيادة على ما نهى عنه.

وكتب السُّنة زاخرة بالأحاديث التي تحث على التوسط واتباع ما هو أيسر وأسهل كما أنها زاخرة بالأحاديث التي تنهي عن الغلو على ما ألمحت إليه من قبل.

أحاديث في الخوارج:[3]

إخباره ﷺ عن الخوارج معجزة من معجزاته الظاهرة، حيث إنه وصفهم بأوصاف واضحة ومشاهَدة عبر التاريخ، وفي زماننا هذا، وإن الصحيح من

١- سورة التوبة: ٣١

٢- سورة هود: ١١٢

٣- للخوارج عدد من الألقاب، منها الحرورية لخروجهم من موضع قريب من الكوفة، اسمه حروراء، ومنها (المارقة) أخذاً مما ورد في الحديث: "يمرقون من الدين" ومنها (الكفرة) لتكفيرهم بالكبيرة وتكفيرهم من خالفهم، ومنها (الشراة) لزعمهم أنهم شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله.

تلك الأحاديث كثير، بلغ حد التواتر المعنوي، ولعلي أسوق نصاً أساسياً فيهم ثم أسوق بعض الروايات الدالة على معانٍ محددة:

- عن عليّ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يأتي في آخر الزمان قوم شباب من أمتي يخرجون من قبل المشرق حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يتكلمون بكلمة الحق، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم الرمية، يقرؤون القرآن، يحسبونه أنه لهم وهو عليهم ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، فأينما لقيتموهم، فاقتلوهم، قتالهم حق على كل مسلم، فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة"[1]

- في حديث ذي الخويصرة: "إن من ضئضئ هذا قوماً يخرجون في آخر الزمان عند اختلاف في الناس"[2]

- يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان، لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد[3]

- "لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان من المسلمين، دعواهما واحدة، فبينما هم كذلك تمرق بينهما مارقة يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية يقتلها أولى الطائفتين بالحق"[4]

- هم شر الخلق والخليقة، فطوبى لمن قتلهم وقتلوه، يدعون إلى كتاب الله، وليسوا منه في شيء، من قتلهم كان أولى بالله منهم"[5]

١- أخرجه عدد من الأئمة، وانظر تخريجه في الأحاديث المسندة الواردة في الخوارج: ١٧ وما بعدها
٢- أخرجه ابن أبي شيبة
٣- رواه عدد من الأئمة
٤- رواه مسلم
٥- رواه مسلم وغيره

- ينشأ نشء يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج قرن قُطع، قال ابن عمر: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: كلما خرج قرن قُطع أكثر من عشرين مرة حتى يخرج في عراضهم الدجال"[1]

- "الخوارج هم كلاب أهل النار"[2]

ولدينا تفصيلات أخرى في صفاتهم، لا أودّ الإتيان عليها، وفيما ذكرت مقنع، وإن الأحاديث والروايات الواردة في الخوارج قد بلغت أربعة وأربعين حديثاً ورواية، المقبول منها في حدود سبعة وعشرين، وإن عدد الصحابة الذين شاركوا في رواية تلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ قد بلغ أربعة وعشرين.[3]

وقفة:

ما ذكرناه من أقوال النبي ﷺ يحمل رسالة للأمة، فحواها: أن عليهم أخذ مسألة الغلاة عامة والخوارج خاصة بالاهتمام الشديد والنظر إلى خطورة وجودهم في المجتمع بعين الجد البالغ، وقد دلت حوادث التاريخ والواقع على ذلك، كما دلت على تساهل المسلمين معهم بل غفلتهم عنهم، وتلك التحذيرات الشديدة، إنما كانت لأن الخوارج منحرفون عقدياً وخارجون من دائرة أهل السُّنة، والانحراف العقدي يعني الابتعاد عن الطريق المستقيم، على حين أن المعصية خطأ يقع أثناء السير على الطريق المستقيم، ولهذا فإن من سلف هذه الأمة من كان يقول: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية لأن المعصية يتاب منها، والبدعة لا يُتاب منها، ولهذا

١- أخرجه ابن ماجة
٢- أخرجه أحمد
٣- الأحاديث المسندة: ١٣٢

أمر النبي ﷺ بقتال الخوارج المبتدعين مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم للقرآن، ونهى عن الخروج على أئمة الظلم، وأمر بالصبر عليهم، وكان يجلد رجلاً يشرب الخمر، فلعنه رجل، فقال: لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله.

وأود هنا أن أشير إلى المعاني الآتية:

١- الغلو والغلاة يشوهون جوهر التدين القائم على الاختيار والإيمان الطوعي، كما أنهم يصادمون (النزعة الإنسانية) العميقة والتي تتغلغل في جميع أحكام الشريعة، وهذا يؤثر في رؤية العالم للإسلام والمسلمين، ولاسيما أن الحرية وكرامة الإنسان ومراعاة ظروف الناس، لها شأن كبير في الثقافة المعاصرة، وإن من المؤسف جداً أن الفظائع التي يصورها بعض الغلاة، ويقومون بعرضها على المحطات الفضائية قد أعطت لكل القوى المتربصة بالعالم الإسلامي المسوغ للتدخل في الدول الإسلامية المضطربة، كما أعطاها المسوغ للهجوم على القيم الحضارية في الإسلام!

ديننا دين الرحمة واللطف والتسامح والمغفرة والدعوة بالحكمة وكسب الآخرين بالقدوة الحسنة، وإن الغلاة يسدلون الستار على كل هذه المعاني، وقد أشار ﷺ إلى مشكلة الخوارج في فهم رسالة القرآن الكريم وفهم جوهر الشريعة الغراء حين قال: «إنهم يدعون إلى كتاب الله، وليسوا منه في شيء» وحين قال: «يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم» وحين قال: «يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم، وهو عليهم».

إن القرآن الكريم لا يُفهم بعيداً عن السُّنة ولا عن فهم الصحابة رضوان

الله عليهم ولا عن اجتهادات الأئمة الأعلام، وإن الاتجاه العام لدى الخوارج والغلاة عموماً هو العودة إلى النص بطريقة مغايرة للأصول التي أرساها كبار الفقهاء، كما أنهم يحاولون فهم النصوص بعيداً عن آراء الأصوليين والمفسرين والفقهاء مما يوقعهم في الوهم، ويبعدهم عن روح الشريعة، على نحو ما وقع لهم في الاستدلال بقول الله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[1].

٢- وصف رسول الله ﷺ الخوارج بأنهم يقتلون أهل الإسلام، ويدَعون أهل الأوثان وهذا العمل الشنيع منهم بسبب استرخاصهم لدماء المسلمين، فهم يقتلون على الشبهة، ويسيئون الظن بالمسلمين، ويفسرون ما يرون من أفعال الناس بحسب أهوائهم وأوهامهم، بالإضافة إلى أنهم يكفرون مرتكب الكبيرة، مما يجعل كثيراً من المسلمين كفاراً، واليوم نجد كثيراً من الخوارج يقاتلون الشباب الثائر المجاهد، ويقدّمون مواجهته على مواجهة الطغاة المجرمين المارقين القتلة بحجة أنهم كفار أصليون، أما المجاهدون فهم مرتدون !!

الخوارج يعممون الأحكام، فتجدهم يحكمون على القبيلة والجماعة والمنظمة الكبيرة بالكفر والردة من غير تبين وتدقيق وتفصيل، وهذا جعلهم يرتكبون المجازر، ويقدمون على قتل الأبرياء دون خوف من الله تعالى ودون إقامة أي اعتبار لحرمة الدماء المعصومة، ومما يذكر في هذا السياق أن أحد علماء المسلمين مرّ بـ (نقطة تفتيش) للخوارج فسألوه عن هويته، فقال: مشرك مستجير، يريد أن يسمع كلام الله، وهنا قالوا له: حق علينا أن نجيرك، ونبلغك مأمنك، وتلوا قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾[2] هكذا ينجو المشرك المستجير، ولو قال لهم: إني من علماء المسلمين لقطعوا رأسه!

١- سورة يوسف: ٤٠
٢- سورة التوبة: ٦

٣- في الأحاديث الواردة في الخوارج ما يدل على أن هؤلاء الغلاة يظهرون في وقت فرقة تقع بين المسلمين، وقد حدث هذا فعلاً في صدر الإسلام حين حدث الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، والذي وصل إلى حد الاقتتال، وإن اللجوء إلى التحكيم كان، هو السبب المباشر لبزوغ فرقة الخوارج وانشقاقها عن جمهور المسلمين آنذاك على ما أشرنا إليه، وهذا يعني أن الغلو والتكفير والعنف والاستخفاف بدماء المسلمين والمشروعات التي تشتمل عليها؛ إن كل ذلك هو نتاج تأزم الوضع الإسلامي ووهن القواسم والقناعات المشتركة التي تقوم عليها الحياة السياسية والاجتماعية، وهكذا فمشروع الخوارج هو مشروع مأزوم للرد على أزمة.

إن افتراق الناس تجاه معالجة المشكلات التي يعانون منها يوهن الإجماع الثقافي، ويجعل ظهور الخوارج سهلاً لأنهم يطرحون حلاً للأزمة، كما يطرح غيرهم حلولهم، وقد علَّمنا التاريخ أن الرأي والمذهب والفكرة والنظرية تجد دائماً من يصغى إليها ويؤمن بها، ويتبناها، بل يضحي من أجلها، إذا ما حظيت بالدعاية الكافية، وهكذا نجد عبر الزمان والمكان أن الدعوة إلى الغلو كانت تجد من يؤمن بها، وينافح عنها .

٤-لم يحث النبي ﷺ على قتال أهل دين أو مذهب أو نحلة كحثه على قتال الخوارج، بل إنه قال: لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد، وفي رواية: قتل ثمود، وهو يقصد الاستئصال وكأنه ﷺ يشير إلى قول الله تعالى: ﴿ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾[1] هذا التأكيد منه ﷺ على أهمية قتال هذه الفرقة بل استئصالها، جعل أهل العلم يذهبون إلى وجوب قتالهم إذا حملوا السلاح وهددوا أمن البلاد، ولكن بقي بعض المسائل

١- سورة الحاقة: ٨

المتروكة لتقدير الحكومة، وينبغي حسمها وتحديدها باجتهاد جديد على قدر الإمكان.

إن كثيراً من الناس يتحرجون من مقاتلة الخوارج لما يرون من استشهادهم بالقرآن وغيرتهم على الإسلام، ولما يرون من عبادتهم ومظهرهم، والمسألة قديمة جداً، فعليّ رضي الله عنه كثيراً ما كان يحث أصحابه على قتال الخوارج، وربما كان يلمس منهم بعض التباطؤ في ذلك، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يرى أن قتال الحرورية (الخوارج) واجب على المسلمين، لذلك همَّ أن يقاتل نجدة الحروري حين أتى المدينة مغيراً على ذراريهم، فقيل له: إن الناس لا يبايعونك على هذا، فتركه.

وهذا التحرج من قتال الخوارج قائم على الاعتقاد بأن القتال يكون للكفار وحدهم، وهذا مخالف لنص القرآن الكريم، حيث يقول سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ﴾[1]. إن قتال البغاة واجب بنص القرآن الكريم ولو لم نحكم بكفرهم على أن بعض أهل العلم من السلف والخلف يفتون بكفر الخوارج، كما أنه لا يجب قتال كل كافر فقد يكون ذمياً أو مستأمَناً يجب الوفاء بعهده.

وسوف نتحدث بإسهاب عن أسباب هذه الظاهرة وأهمية معالجتها بحول الله وطوله.

نسبية الغلو:

إذا كان الغلو عبارة عن تجاوز لحد الاعتدال، فإن وعي مفهوم (الغلوّ) منوط بفهم مدلول (الاعتدال) وبما أن المعنى اللغوي والاصطلاحي للاعتدال غائم ومائع، فإن مفهوم الغلو كذلك غائم ومائع، وقد حاولوا إزالة بعض الغموض

١- سورة الحجرات: ٩

عن هذين المفهومين فأوكلوا أمر تفسيرهما إلى العرف الاجتماعي، لكن العرف الاجتماعي ليس موحداً في هذا وذاك، مما جعل القول بنسبية الغلو والتطرف أمراً لا مفر منه.

نستطيع القول: إن أبسط درجات الغلو هو ما يمكن تسميته بالغلو الناعم، وهو ما يقوم على رؤية حدية ومتكلسة للذات والآخر والماضي والحاضر والمستقبل، هذه الرؤية تشكل البيئة أوالحاضنة للفكر والسلوك المغالي.

الإنسان الغالي يبدأ مسيرته بالشك في صحة ما تواطأ عليه مجتمعه من أعراف وتقاليد، وما يقره علماء بلده من أحكام، وما يؤمنون به من أفكار ومفاهيم، ويتطور ذلك الشك إلى بلورة مفاهيم خاصة عن الحياة والأحياء والذات والآخر، ويتم إسباغ صفة العصمة على تلك المفاهيم، ويتطور الأمر إلى إدانة الغلاة لكل الأفكار والقيم والمفاهيم المخالفة لما يحملونه من كل ذلك، وبعد الإدانة تأتي شهوة فرض ما يراه الغلاة على غيرهم بالقوة، ويتحول المخالف بالتدريج إلى عدو يجب استئصاله، بل يتحول إلى خطر وجودي لا يجوز في أي حال من الأحوال غض الطرف عنه.

قد كان من شأنه ﷺ أنه ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإذا جاء من المسلمين من يختار الأعسر، فإنه يكون قد خطا خطوة على طريق الغلو من خلال رغبته في شيء مخالف لهدي النبي، فإذا جاء من ينكر على من يأخذ بالأيسر يصبح في عداد الغلاة.

هذا رجل مسلم له جار نصراني يعامله بالإحسان والنصح، ويعينه في أمور دنياه، فهو مسلم وسطي معتدل ومدرك لآداب الشريعة، فإذا قاطع هذا المسلم

جاره النصراني وأعرض عن التعامل معه، فإنه يكون قد تلبس بأخف حالات الغلو، فإذا صار يرفع صوت المذياع، ويُلقي القاذورات أمام بيته، حتى يحمله على الرحيل يكون قد أوغل أكثر في الغلو، فإذا حمل السلاح وهدد به جاره حتى يجبره على ترك بيته يكون قد بلغ أعلى درجات الغلو والتطرف وصار جديراً بلقب (إرهابي).

خطورة نسبية التطرف تتجلى في صعوبة مناهضته وتقليص وجوده في المجتمع لأن الدرجات الخفيفة منه تبدو وكأنها شأن شخصي، وخيار فردي سلمي، مع أنها تكون الجذر الذي سيكون له ساق وأغصان وثمار مُرة!

البنية الفكرية للغلاة:

مهما تحدثنا عن الأسباب التي تدفع في اتجاه الغلو، ومهما تحدثنا عن التنوع في المنهجيات التي يعتنقها الغلاة، إلا أن من الثابت أن هناك بِنية فكرية يحملها جميع الغلاة على نسب متفاوتة، وهذه البنية تتحكم في نوعية امتصاص الأخبار والمعلومات، كما تتحكم في نوعية معالجتها والبناء عليها واتخاذ المواقف على أساسها.

نعني بالبنية الفكرية مجموعة المبادئ ومجموعة الخطوط العريضة التي توجِّه التفكير لدى الغلاة، والتي ينطلقون منها في نقد غيرهم وتوضيح أوجه التباين معه.

إن البنية الفكرية المعنية هنا لا تتشكل في يوم وليلة، ولا تنشأ في فراغ معرفي وتربوي واجتماعي، ولهذا فإن مما يجانب الصواب في نظرنا تلك التحليلات

المستعجلة التي يطلقها بعض الباحثين في توصيف ظاهرة الغلو وما يتصل بها من التطرف والإرهاب.

إن الحديث عن البنية الفكرية للغلاة في كتاب موجز سيكون بالطبع مختصراً وموجزاً، ولعلي أتحدث هنا عن أهم الملامح التي تميز العقلية التي يحملها الغلاة، وذلك عبر المفردات التالية:

١ - **الخلفية الاجتماعية**: يدل العديد من المشاهدات على أن الغلو وما يترتب عليه من سلوكيات متطرفة وعنيفة هو ظاهرة ريفية أكثر من أن يكون ظاهرة مدنية حضرية، وهذا من الناحية الاجتماعية والثقافية مفهوم تماماً لأن البنية العامة للعقلية في الريف تميل إلى البساطة والنمطية، والتنميط يجعل الدخول إلى عقول الشباب وإغواءهم أسهل على ما هو معروف، ومن الثابت تاريخياً انقياد ألوف الناس لشخص واحد، يؤمنون بإيمانه ويرتُّدون بردته، وفي أفريقية على_ سبيل المثال_ شهدنا في العصر الحديث دخول قرى وقبائل بأكملها في الإسلام بسبب إسلام رؤسائها، وهذا ما لا يمكن أن نشهده في أمريكا أو أوربا أو في أي عاصمة عربية.

في المدن والحواضر يكون المجتمع عبارة عن خليط من أجناس وفئات وأطياف مختلفة، وهذا يولد ثقافات وعقليات مركَّبة حيث إن التنوع يعلِّم الناس التعايش مع المختلف كما يعلمهم التفاوض والتسامح والتنازل والتكيف، بالإضافة إلى أنه يدرب الناس على الإيمان بنسبية كثير من الحقائق والأفكار، وهذا كله يعمل ضد الغلو والتطرف.

علينا أن نضيف إلى القرى والبوادي المدنَ الجديدة وتلك الأحياء التي تنشأ

على أطراف المدن العريقة، فسكانها سيحملون إلى عقود من الزمان الخلفية القروية والبدوية التي أشرنا إليها.[1]

هذا لا يعني ألبتة ألا يكون بين الغلاة من هم من أبناء الأسر العريقة في مدنيتها، فنحن هنا نتكلم عن قواعد مرنة، كما أننا نتكلم عن نِسب ليس أكثر، وهذا كله يعني أن الغلو باعتبارٍ ما هو ذيل من ذيول التخلف الحضاري.

٢- **الافتقار إلى النظرة الموضوعية**: لو تأملنا في طروحات الغلاة ومقولاتهم لأدركنا بسرعة أن لديهم مشكلة في طريقة التفكير على مستوى تحليل الواقع وعلى مستوى رد الفعل والعلاج، وإن ما تعانيه الأمة اليوم من الغلو والغلاة يتعلق بموضوعات شائكة للغاية، وذلك مثل السياسة الداخلية للحكومة والعلاقات الدولية وبعض الخطط الإصلاحية ومسائل مكافحة الفساد والتسويات السياسية.. وهذه موضوعات تتصل بالشريعة، كما أنها تتصل بالسياسة والإعلام والعلاقات الدبلوماسية، كما أن هذه القضايا الشائكة كثيراً ما يكون التعامل معها وفق فقه الممكن والمستطاع، وعلى أساس الموازنة بين المصالح والمفاسد والنظر في فقه المآلات..، والتعامل معها يقتضي درجة من الثقافة الموسوعية، وهذا كله مفقود لدى الغلاة بسبب المستوى الثقافي المتدني لمعظمهم وبسبب انعدام الخبرة بالحياة؛ إذ إن معظمهم أحداث الأسنان، وخذ على سبيل المثال مقولتهم الشهيرة: «لا يفتي قاعد لمجاهد» حيث إنهم يعتقدون أنه لا يؤخذ إلا قول أهل الثغور من المجاهدين في نوازل الجهاد ومستقبل الأمة وأمورها الجسام، وقد يستشهدون في هذا بقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ

١- نحن هنا نوصِّف حالة ثقافية فكرية، ولا نُصدر أي حكم أخلاقي على أحد؛ فلدى بعض أبناء البوادي والأرياف من الفهم والأصالة والصلاح مايزيد على مالدى كثير من أبناء المدن.

وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1]

إن مقولة: لا يفتي قاعد لمجاهد ليست من بين القواعد الفقهية التي عليها أهل العلم، كما أنه لم يتحدث أحد عن أن من شروط المفتي أن يكون مجاهداً أومرابطاً على ثغر، وإن أقوال الأئمة الأربعة في الجهاد تعد منارات تهتدي بها الأجيال مع أن أياً منهم لم يكن منخرطاً في صفوف المجاهدين.

إن الرؤية الأحادية لدى الغلاة جعلتهم يخبطون خبط عشواء حين ظنوا أن المرء بمجرد أن يكون مجاهداً يصبح عارفاً بالواقع وعارفاً بمواقف الحكومات والدول ومشروعاتها الاستراتيجية ومدى تداخل الملفات الإقليمية على أرض الجهاد.. وهذا لا يقول به أي مثقف أو طالب علم يعرف قيمة الاختصاص وصعوبة فهم الواقع والمؤثرات فيه.

الغلاة ليس لديهم مراجع علمية إلا من الدرجة الثالثة أو الرابعة ومع هذا فإنهم يعتمدون أقوالهم، ويغضون الطرف عن كل ما يقوله علماء الأمة الثقات في سائر الأقطار، وما ذلك إلا لضعف قدرتهم على تكوين الرؤية الشاملة والمقارنة بين الأقوال والأدلة بالإضافة إلى التعصب الأعمى لكل من يوافقهم في أهوائهم بقطع النظر عن مكانته العلمية!

٣- **تقديس القوة**: لا أحد يقول: إن الضعف خير من القوة، لكن الكلام هنا عن المراد من القوة، فالعالم كله اليوم يتحدث عن قوة السياسة وقوة التعليم وقوة الاقتصاد وقوة التنظيم، والخوارج ومن يدور في فلكهم من المتطرفين لا يتحدثون إلا عن القوة العسكرية والعنصر البشري القادر على بذل روحه رخيصة من أجل

١- سورة النساء: ٩٥

إيقاع النكاية بأعدائه.

لو نظرنا في تاريخ الإسلام لوجدنا أن قوة براهينه بالإضافة إلى سمو القيم والنزعة الإنسانية التي تحلى بها أسلافنا هي التي جعلت الأذان يعلو في كل مكان من الأرض، ويدل بعض الدراسات على أن إدخال الجزيرة العربية في الإسلام لم يكلف في زمان النبي ﷺ هدم المدن ولا جعل الدماء تسيل كالأنهار، إن مجموع قتلى المسلمين في زمانه ﷺ لم يصل إلى الخمسمئة، أما قتلى المشركين فلم يصلوا إلى ألف وثلاثمئة، وهذا يدل على أن استخدام القوة المسلحة لم يكن هو الأساس في هداية الخلق وإخضاع الأعداء، وإنما كان الاعتماد على جاذبية الإسلام وعلى التفاوض ورعاية المصالح المشتركة وقبل هذا وذاك أخلاق الرحمة والشفقة والعدل والإحسان والبر التي تحلى بها المسلمون الأوائل.

إن انسياق الغلاة خلف القوة العسكرية جعلهم قريبين من اليهود في حركتهم العالمية حيث إنهم يعتمدون في فلسطين على البلطجة المسلحة، ويتحالفون مع الأقوى دون أي اعتبار أخلاقي، وإن الذي ينظر في التوراة يجد أنها تمجدّ القوة، وتهتم اهتماماً واسعاً بالحروب، حتى إنها لتأتي على أعداد القتلى والأسرى، كما أنها تطفح بأخبار إحراق المدن بما فيها من إنسان وحيوان وبساتين بالإضافة إلى ردم الآبار ودفن عيون الماء...

المشكل أن الغلاة لا يصنعون الأسلحة، وإنما يحصلون عليها عن طريق الشراء من قبل جهات مختلفة بعضها يدعي الغلاة أنهم منخرطون في حرب معها، كما أن الواحد منهم حين يصبح من غير سلاح يصبح من غير أي قيمة أوفاعلية.

الغلاة لا يدركون أن صراعنا مع الأعداء على اختلاف ألوانهم ليس صراعاً

عسكرياً محضاً، بل إن العالم لا يلجأ اليوم إلى استخدام السلاح إلا عند الضرورة القصوى، وذلك لأن الأمم المتقدمة تتسابق في تثبيت نفوذها عن طريق جعل بلادها ومنتوجاتها الثقافية والمادية جذابة للآخرين على أساس قيادة الشعوب من خلال رغاباتها وطموحاتها وحاجاتها، وليس عن طريق تهشيم رؤوسها، كما يفعل بعض الخوارج اليوم.

إن التفنن في قتل الأسرى إحراقاً وإغراقاً وجزاً للرؤوس قد بلغ حدوده القصوى في التعبير عن قهر وإذلال الخصوم عن طريق القوة الخشنة على حين أن العالم اليوم يستخدم على نحو أساسي القوة الناعمة المتمثلة في الاقتصاد والنماذج الملهمة والتربية والتعليم والإعلام وجاذبية أسلوب العيش.

سوف يدرك الغلاة ولو بعد حين أن تعشقهم للقوة المسلحة واستخدامهم المفرط لها داخل بلاد المسلمين لن يمكِّن لهم في الأرض، ولن يجعلهم سادة العالم، كما أنه لن يساعدهم على بلوغ أهدافهم أيا كانت تلك الأهداف، فنحن ننظر إلى الصراع العالمي على أنه صراع أفكار ومنتجات ونفوذ، وإن اللجوء إلى العنف في حالة كهذه، لا يعبر إلا عن الإفلاس الثقافي والقصور الذهني!

٤- **العجَلة في إطلاق الأحكام**: هذه السمة من أهم سمات الغلاة لأنها أوقعتهم في مأزق كبير جداً، هو الحكم على الناس بالكفر والردة بسهولة بالغة!

أنا دائماً أقول: إن التفكير السطحي هو عبارة عن تعامل الشخص مع قضايا معقدة بأفكار وأساليب وأدوات بسيطة، والذي يدفع إلى ذلك هو الجهل وضعف الخبرة، وقد أشرت إلى أن نبينا ﷺ ذكر من صفات الخوارج أنهم سفهاء الأحلام أحداث الأسنان، فلا رجاحة في العقل ولا علم ولا خبرة، وقد قتل

الغلاة والخوارج في سورية والعراق ومصر وغيرها من بلاد المسلمين مئات الأشخاص بسبب إصدار الحكم عليهم بالكفر والردة لأنهم بزعمهم يوالون الكفار، أويستعينون بهم، أولأنهم لا يحكمون بما أنزل الله تعالى مع ان مسألة تكفير شخص بعينه من الأمور التي ورد فيها التحذير الشديد على نحو ما نجده في قوله ﷺ: «أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما»[1] وقوله: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[2].

إن المسارعة إلى الحكم على شخص محدد بأي حكم مخالفٌ للشرع كما أنه مخالف للعقل؛ فنحن نقول: من مرّ في طريقه إلى عمله بشخص يحتاج إلى إسعاف وجب عليه إسعافه، لكن حتى نحكم على فلان من الناس بالخطأ لأنه لم يسعف فلاناً الذي رآه في طريقه نحتاج إلى معرفة ظروفه، فقد يكون معه امرأة في حالة مخاض، وتحتاج إلى إسعاف أسرع وأهم، وقد يكون في حاجة إلى السرعة حتى لا تفوته الرحلة بالطائرة، وقد تكون له تجارب سيئة مع الحالات الإسعافية وقد وقد ... ولهذا فإن علماء المسلمين قد وضعوا الكثير من الشروط لتكفير شخص بعينه، والغلاة لا يعرفون شيئاً من تلك الشروط، ولا يعبأون بها!

٥- **بيئة للظنون والأوهام**: يشكل الغلو بمفاهيمه وعقول رجاله وطموحاتهم وتصوراتهم ... بيئة خصبة للظنون السيئة في المسلمين والاعتقادات الحسنة بالنقاء والطهر الشخصي، وبيئة خصبة للأوهام من كل الأشكال!

إن الفهم الطفولي للعالم والواقع والفهم السطحي للصراعات الدولية ورهانات النفوذ الإقليمية، إن كل ذلك يدفع الغلاة والخوارج على تنوع أشكالهم إلى مغامرات مستمرة لتحقيق أحلام مستحيلة، وهذا هو دأبهم من فجر الإسلام

١- - متفق عليه
٢- متفق عليه

وحتى يوم الناس هذا، بل إن ذلك سيستمر حتى آخر الزمان، فقد ورد عنه ﷺ قوله في الخوارج: «كلما طلع منهم قرن قطعه الله ﷻ حتى يخرج في بقيتهم الدجال»[1]

إن الخوارج يظنون أنهم بحبهم للشهادة وباستبسالهم وإقدامهم يستطيعون إقامة الممالك والولايات والإمارات في طول الأرض وعرضها، ولهذا نجد أنهم في السنوات الأخيرة قد أدمنوا الإعلان عن ولاياتهم وإماراتهم في العديد من الدول الآسيوية والإفريقية على مبدأ من يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه قادر على إقامة إمبراطورية ممتدة الأرجاء مع أن هذا في ظل الدولة القطرية والتحالفات الإقليمية بات من المستحيلات، وحين حاولت ذلك دولة عظمى كالولايات المتحدة في بلاد مثل لبنان والصومال وغيرهما تكبدت خسائر فادحة، وارتدت على أعقابها. مشكلة الإدعاءات الطويلة والأوهام العريضة تظل تعصف بالخوارج أينما اتجهوا لكنهم يراهنون من خلالها على جذب بعض الشباب ذوي المعرفة المنخفضة والحماسة العالية.

وقد بات من الواضح أن جهل الإنسان بالبيئة التي يتحرك فيها والجهل بعناصر المقاومة والمنافسة يشكل له الكثير من الإخفاقات والمتاعب، ولكن أين من يعقل هذا بين الخوارج؟

من المعروف أن القاعدة هي من تم اتهامه باستهداف برجي التجارة العالمية في نيويورك، وقد سمعت بعض من يروج لفكر القاعدة وهو يشرح الفلسفة النظرية التي قامت عليها الواقعة، حيث يرى أن أمريكا هي العدو الأول للإسلام والمسلمين، وأن قوة أمريكا تكمن في اقتصادها، وأن برجي التجارة يشكلان

١- أخرجه أحمد والحاكم.

الرمز الأهم للاقتصاد الأمريكي، فإذا هُدم ذلك الرمز انهار الاقتصاد الأمريكي!

تم فعلاً هدم الرمز، ودفعت شركات التأمين ثمن إقامة بديل جديد عنه، ولم تفلس لا أمريكا ولا شركات التأمين فيها، ولكن تم تدمير العمل الخيري في عدد من الدول الإسلامية، وإسقاط حكومتين في بلدين مسلمين!

٦- **النظرة المثالية**: شيء جيد أن يتحلى الإنسان بشيء من المثالية، بل إن كل القيم النبيلة والأخلاق الفاضلة تتسم بشيء من التعالي على الواقع العام، ويحتاج التحلي بها إلى قدر من المثالية ومجاهدة النفس، لكن الجرعة الزائدة من المثالية تُبعد الإنسان عن الواقع وتجعله صاحب نظرات ونظريات مرهقة ومتعسفة، وهذا يتنافى مع سماحة الإسلام الذي يحرص كل الحرص على مراعاة الطبيعة البشرية وما فيها من نقاط ضعف وهشاشة والتباس...

إنني أستطيع القول إن: الإيغال في المثالية ينتج عنه شيئان: الضلال في الأحكام والعجز في الأفعال؛ لأن الشخص المثالي لا يرى الأشياء على حقيقتها، ومن ثم فإن حكمه عليها وتعامله معها يظل دائماً خارج النطاق الموضوعي وخارج الاستطاعة والمكنة.

الغلاة والخوارج وكل المتطرفين على اختلاف وجهاتهم وانتماءاتهم مصابون بما يمكن تسميته المثالية الفجة أو المثالية المتعسفة، إنهم ينظرون إلى المسلمين على أنهم مثاليون في فهم الدين والامتثال لأمر الله تعالى ومخالفة أهوائهم، وهذا هو الذي دفع الخوارج في الحقيقة إلى القول بكفر مرتكب الكبيرة مع أن هذا مصادم على نحو صارخ لقول الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1]. كما أن القرآن الكريم لم يجعل جميع المسلمين من أهل العزيمة والصلاح

١- سورة النساء: ٤٨

والأخذ بالكتاب بقوة، وهذا واضح في قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾[1]

والنظرة المثالية هي التي حيَّدت فقه الموازنات بين المصالح والمفاسد من معادلات الخوارج، ومن ثم فإنهم ينظرون إلى التفاوض والتواصل مع غير المسلمين على أنه نوع من الولاء لهم مع أن التفاوض مع الأعداء لتجنيب المسلمين بعض الكوارث والمصائب، يتجاوز في بعض الأحيان منطقة الجائز إلى منطقة الواجب، والغريب أن خوارج عصرنا يستخدمون النظرة المثالية عند الحكم على غيرهم، وحين ينظرون في مصالحهم فإنهم يبيحون لأنفسهم ما حرموه على غيرهم، ويعدون ذلك من باب الذكاء والخديعة والدهاء والمكر، وهذه انتهازية ونفاق ليس أكثر!

للغلاة نظرة مثالية إلى أساليبهم ووسائلهم وإمكاناتهم الخاصة على مقدار ما لديهم من استهانة بإمكانات الآخرين وقدراتهم، ولهذا فإنهم طالما صرحوا بأنهم يريدون تغيير عادات وأخلاق وأذواق وطموحات شعوب بأكملها، ولكن من خلال أساليب بدائية وأدوات متقادمة متجاهلين ألوف البحوث والدراسات التي كتبها علماء الإنسان حول الطبيعة البشرية وصعوبة التعامل معها، وهذا لأن الغلاة يثقون ثقة عمياء بقدرة الضغط والإكراه والترهيب على تغيير مسار الناس؛ وهذا من ضحالة التفكير وسوء التقدير.

للغلاة أيضاً نظرة مثالية لقياداتهم، فهم يعاملونهم كما ينبغي أن يُعامل المعصوم الذي لا يخطيء، وأي طاعة عمياء أعظم من أن يفجِّر الواحد منهم نفسه في جمع

١- سورة فاطر: ٣٢

من المسلمين بناء على أمر من شخص قد يكون مجهولاً لديه جهالة شبه تامة؟!

إن مثالية الخوارج ألقت على عيونهم وقلوبهم العديد من الأغشية مما يجعلهم أشبه بالطائر الذي يبيض في غير عشه أوالسفينة التي فقدت اتجاهها في أعماق المحيط !

البِنية النفسية لدى الغلاة:

لابد لي في البداية من القول: إن لدى الإنسان صلة وثيقة جداً بين بِنيته الفكرية ورؤيته للعالم وطريقة تفسيره للأحداث وبين عواطفه ومشاعره، وقد أثبت الكثير من الدراسات أن العلاقة بين الأفكار والعواطف هي التأثير المتبادل: البنية الفكرية تولد الكثير من المشاعر والعواطف المنسجمة معها، والعواطف والمشاعر تضغط على البنية الفكرية لدينا كي تنتج الأفكار التي تشرح منطقية مشاعرنا وعواطفنا، ومما لا يخفي أن تصوراتنا عن شخصٍ ما قد تجعلنا نحبه ونحترمه ونتعاطف معه، كما أنها قد تجعلنا نكرهه ونزدريه، ونقف ضده، كما أنه لا يخفي أننا حين نحب شيئاً نبحث عن ميزاته وفضائله، وحين نبغض شيئاً نبحث عن عيوبه وسلبياته.

النفوس المأزومة تدفع الدماغ في اتجاه إنتاج الأفكار السوداوية المتشائمة، كما تدفعه في اتجاه إنتاج أفكار الثأر والانتقام، وإن الانحراف الفكري الموجود لدى الغلاة يولِّد لديهم الكثير من مشاعر الضيق والغضب والتعصب والقلق، وهذا كله يعني أن أي تحسن يطرأ على عمليات التفكير وخطوط الرؤية سينعكس على الحالة النفسية والشعورية للمرء، كما أن تحسن الحالة النفسية والشعورية يحفز الدماغ على إنتاج الأفكار الإيجابية.

ملاحظات حول البنية النفسية للغلاة:

١- **الانحراف الفكري أولاً**: علينا أن نقول: إن الغلو وما يتطور إليه من تطرف وعنف وتدمير ليس نتاج شخصية محددة، بمعنى أنه ليس هناك شخصية يمكن أن نسميها الشخصية المتطرفة، التطرف منهج فكري أكثر من أن يكون حاجة نفسية، حيث ينغلق الغالي والمتطرف على مجموعة من الأفكار، ويتعصب لها إلى درجة أنه لا يقبل أي مناقشة أو نقد لها، ويعقب هذا تطرف انفعالي من خلال توجه مشاعر الشخص المتطرف وانفعالاته نحو أشياء محددة، وتُنتج هذه المشاعر والانفعالات في نهاية الأمر سلوكاً متطرفاً، يختلف في شدته وعدوانيته من شخص إلى آخر.

٢- **الإحباط**: يعتقد معظم الغلاة أن أمة الإسلام مظلومة، وأنهم على رأس قائمة المظلومين والمضطَّهدين، كما يشعرون أن مطالبهم السياسية والاجتماعية مشروعة وبسيطة وبدهية، ولهذا فإن عدم الاستجابة لتلك المطالب يجعلهم يشعرون بالقلق والتوتر الشديد، مما يسهِّل عليهم الخروج على القوانين السائدة وكسر الأعراف الاجتماعية والاستهانة بأقوال وفتاوي المرجعيات الدينية.

٣- **الشعور بالنقص**: مشاعر العجز والدونية والنقص كثيراً ما تهيمن على الشخص الغالي والمتطرف لأن معظم الغلاة هم ممن لم ينالوا الحظ الأوفى من التعليم، وهم في الغالب في أسفل السُّلم الاجتماعي، ولهذا فإن المتطرف يندفع من باب تعويض النقص إلى القيام بأعمال تدميرية مخيفة يُثبت من خلالها ذاته وقدرته على فعل ما يعجز عنه الكثيرون، ويمده ما لديه من قصور فكري بما يسوِّغ ذلك، حيث يعتقد أن تفجير نفسه أو قتل فلان أو فلان هو خطوة مهمة على طريق تحقيق النصر وصلاح العالم!

٤- **تقليد القاهر**: يشعر معظم الغلاة ولاسيما أولئك الذين يقومون بأعمال عنيفة بأنهم مقهورون مظلومون، مغلوبون على أمرهم، وقد ذكر ابن خلدون في مقدمته فكرتَه الذائعة عن نفسية الإنسان المقهور حيث قرر أن المغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب والاقتداء به في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده[١]

وقد كان من المتوقع أن يكون بين الظالم والمظلوم تباين شديد وتباعد في الموقف والسلوك، وهذا ما يقتضيه المنطق والفطرة السليمة، وهذا صحيح فيما لو كانت العلاقة بين القاهر والمقهور هي علاقة الكره والرفض، لكن الحقيقة هي أن المقهورين يحملون في نفوسهم مشاعر مختلطة ومتناقضة تجاه الذين قهروهم، إنهم يحملون مشاعر الكره والإعجاب معاً، الكره بسبب الظلم والإعجاب بسبب ما يرونه فيهم من القوة والتمكن وسعة الحيلة، وهذا ما نجده بالضبط في السلوك العام لما يسمى بتنظيم الدولة الإسلامية والقاعدة ومن سلك سبيلهما حيث إن كثيرين منهم قد تذوقوا طعم القهر وكسر الإرادة والإذلال المهين من خلال ألوان العذاب الذي صُبّ عليهم في سجون بعض الدول، وها هم اليوم يمارسون قطع الرؤوس والحرق وكل فنون التعذيب لمخالفيهم ومن يقعون في قبضتهم، وبعض هؤلاء من المتدينين الملتزمين بأحكام الشريعة بحسب المقاييس الشرعية.

٥- **هشاشة عامة**: معظم الغلاة الذين اندفعوا في طريق العنف، هم من صغار السن والشباب عامة، إذ يشير بعض الدراسات إلى أن أعمارهم هي في الغالب بين ١٦ – ٢٦ سنة حيث الخبرة الفجة والاستقرار النفسي الهشّ، ولهذه الهشاشة عدد من العلامات التي لا تخطئها العين، ومن تلك العلامات:

- السرعة والعجلة في إصدار الأحكام على الأشخاص والأحداث، وإن

١- انظر المقدمة: ٤/ ١٧٦

التاريخ البعيد والقريب حافل بهذا، فالعقلية السطحية – كما أشرت من قبل – تدفع في اتجاه تبسيط الأمور والتعامل مع الأشياء المعقدة بأفكار وأدوات بسيطة.

– الشك في الآخرين واتهامهم وإدانتهم إلى الحد الذي يجعلهم يتهمون مجتمعات وتجمعات إسلامية كبيرة بالكفر والردة والعمالة والخيانة، وصار الشرفاء المستقيمون في نظرهم هم الاستثناء!.

إن هشاشة الفكر لدى الغلاة تغذي هشاشة النفس، وتقوم هشاشة النفس بالدور نفسه مما يجعل الغلاة في أمس الحاجة إلى الإصلاح الفكري والدعم النفسي معاً.

٦– **ضيق دائرة الانتماء**: حين يشعر المرء أنه ينتمي إلى أمة أو وطن أو حضارة، فإن آفاق روحه وعقله تكون متسعة، ويكون أميل إلى الانفتاح وتفهم التنوع، وهذا هو شأن الأسوياء في كل زمان ومكان، أما الغلاة والمتطرفون فإنهم ليسوا كذلك حيث إنهم يشعرون أن أفكارهم ليست مقبولة لدى الوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه، كما يشعرون أن أسرهم ومجتمعاتهم قد جانبت الحق والصواب في كثير من شؤونها، وهذا يدفعهم إلى الانكفاء على أنفسهم وتضييق دوائر علاقاتهم وعدم البوح بأفكارهم إلا لمن يعتقدون أنه يتقبلها، ويتفاعل معها، وحين يبدأ المتطرف في مباشرة بعض الأعمال العنيفة، فإن عزلته وانسحابه من المجتمع يصبحان من الحاجات الأمنية الملحة. حين تضيق دائرة الانتماء لدى أي إنسان، وينحصر في جماعة محددة فإن من المألوف أن يشتد ولاؤه لها وخوفه عليها، وهذا يبعث على التعصب ورفض أي نقاش حول ما منحه ولاءه وثقته، وهذه الحالة النفسية يقع فيها أحياناً بعض أتباع الطرق الصوفية، حيث يستمتع المريد بعزلته ومخالفة المجتمع لآرائه ومعتقداته.

٧- **الشعور بالحصار**: يشعر كثير من الغلاة بأنهم محاصرون حصاراً شديداً من قبل عدد من الأطراف، محاصرون من قبل الحكومات ومن قبل التيار الإسلامي المعتدل ومن قبل التيار الليبرالي والتيار اليساري، بل من قبل كثير من عامة الناس، وهذا الشعور يجعل المتطرف يتعامل مع ذلك الحصار على أنه تحدٍ تجب مواجهته بكل السُبل، ولو كلفه ذلك حياته وأمنه.

شعور الغلاة بالحصار يقوي الرابطة بينهم إلى درجة الإيمان بأنهم يشكلون تياراً معتبراً، يملك الصواب والنقاء والترفع عن المصالح والشهوات، لكن هذا لا يعني أن الغلاة ينعمون بمشاعر الطمأنينة، والدليل على هذا أن أعداداً معتبرة منهم تتراجع عما انزلقت إليه من مواقف خاطئة.

٨- **الشعور بالاستعلاء**: لدى الغلاة شعور بتمجيد الذات يصحبه شعور بالاستخفاف بالآخرين، وهذا الشعور منتَج طبيعي للانحراف الفكري الذي لديهم، حيث إن البيئة التي يعيش فيها الغلاة محرومة من النقد الذاتي والتفكير النسبي، وذلك لأن قيادات الغلاة تراهن على جهل الناس وانخفاض درجة وعيهم، ولهذا فإنهم يعتمدون (البيعة) في العلاقات التنظيمية بينهم، فعن طريق البيعة تصبح طاعة الأمراء والقيادات واجبة، وتصبح مناقشتهم أشبه بالاعتراض عليهم ونزع اليد من بيعتهم.

يأتي شعور الاستعلاء لدى الغلاة من حسن الظن بالنفس وسهولة الحكم على الآخرين بالكفر والردة والخيانة والتفريط بمقدرات الأمة، بالإضافة إلى أن المعروف عن الخوارج الأُوَل هو كثرة التعبد وتجويد أداء الشعائر على نحو ما أشار إليه ﷺ في قوله: «يحقر أحدكم عمله إلى عملهم»[١] وخوارج اليوم عندهم

١- رواه أحمد

المشاعر نفسها، ولم لا وهم يرون رفاقهم يفجرون أنفسهم في الأعداء من أجل ما يعدونه أهدافاً سامية؟!

شعورهم بالكبر والغرور سدّ عليهم أبواب النصح حيث يشعر كل من يخالطهم بأنه لا فائدة من حوارهم، ولا يمكن الوصول معهم إلى شيء!

إن الحديث عن ظاهرة الغلو حديث ذو شجون وله ذيول، وقد حاولت أن أتناول الأمور الأساسية منه؛ وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

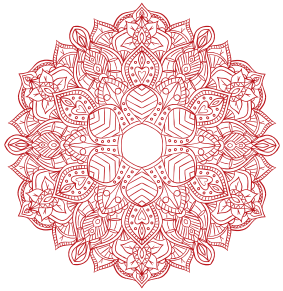

أسباب ظاهرة الغلو

نظل في حاجة من أجل التعامل مع (الغلو) ومخرجاته إلى المزيد من الوعي به، وكنت قد تحدثت عن هذا قبل قليل، وربما ذكرت شيئاً يمكن تصنيفه مع أسباب هذه الظاهرة العتيقة والمخيفة، ولكن لابد من بسط الحديث أكثر لأن هذا جزء أساسي من توصيف الظاهرة.

إن الأسباب والعوامل التي يمكن أن تجعل من متدين أو جماعة أو تيار إسلامي في جملة الغلاة والمتطرفين كثيرة ومتشابكة إلى حد بعيد على النحو الذي تشتبك فيه التركيبة العقلية والنفسية مع نوازع الإنسان وحوافزه ومع الظروف التي يمر بها والبيئة التي يعيش فيها، على أن من الثابت أن بعض العنف الذي يقوم به بعض من يدعَّون التدين كان عنفاً صناعياً رتبت له بعض الأجهزة الأمنية في بعض الدول من أجل إسقاط حكومة معينة أو إيجاد مسوغ لحصار جماعة أو ضرب تيار وسطي معتدل...

لاريب أن من الصعب جداً تفسير ظاهرة كبرى مثل ظاهرة الغلو والتطرف بعامل واحد أو عاملين أو خمسة، فالإصابة بداء الغلو إصابة معقدة، وهي أشبه

بالإصابة بمرض خبيث حيث إن المواد المسرطنة تفوق الحصر، ولكن وجودها في حياة أي إنسان ليست كافية لجعله يصاب بالسرطان ما لم تكن لديه القابلية والاستعداد لذلك، وهكذا فالفقر والظلم والتعذيب والتربية القاسية والفهم الخاطئ للواقع والشريعة... كل واحد من هذه الأمور قد يكون كافياً بمفرده لتحويل شخص متدين إلى متطرف بل إلى شخص يفجر نفسه في مجموعة من الناس، لكنها مُجتمعة لا تستطيع تحويل كل متدين إلى غالٍ أو متطرف.

إذن نحن نتحدث هنا عن أسباب عامة من الصعب ربط أشخاص أو أوضاع معينة بها على نحو آلي، وهذه الملاحظة شديدة الأهمية في التشخيص والعلاج، والآن إليك أهم ما أعده أسباباً تدفع في اتجاه الغلو من خلال الأحرف الصغيرة الآتية:

١- الجهل بالشريعة:

أ- نصف طالب علم:

كانوا يقولون: نصف عالم أخطر على الأمة من جاهل، وما ذاك إلا لأن حالة نصف العالم حالة ملتبسة رمادية اللون، وإن كل الأشياء الرمادية هي مصدر للحيرة والفهوم والتأويلات المتباينة، إن ميزة الجاهل أنه يعلم أنه جاهل، فيكفُّ عن التعاطي مع ما ليس من شأنه، أما نصف العالم، فإنه يملك بدايات وقشوراً علمية، فيوهم نفسه، ويوهم غيره بأنه عالم، فيخبط في المسائل الكبار، ويخرِّب في العقول والنفوس دون الشعور بأي حرج!.

لو نظرنا في نشأة الخوارج الأولين لوجدنا أنهم تكوَّنوا من بعض العبّاد الجهلة وأصحاب الأهواء وكثير ممن لم يتفقهوا في الدين، وقدكانت ضحايا الخوارج - وما زالت- من بعض الغيورين أصحاب العواطف الجياشة والاندفاع والتسرع دون أي فقه في الدين وأي معرفة بتعقيدات الواقع، وتتضاعف المشكلة حين يكون الغلاة من صغار السن عديمي الخبرة والتجربة، فهؤلاء يجتاحهم إلى جانب

الجهل الغرورُ والشعور بالاستعلاء، ودأبُهم تسفيه العلماء والمفتين ممن لا يوافقون أهواءهم ومواقفهم، فهم في نظرهم علماء سلطان وأصحاب أهواء ومصالح، بل إنهم نعتوا بعض أهل العلم بالعمالة للعدو، أي بالخيانة العظمى، بل إنهم كفَّروا بعضهم، وأخرجوهم من الملة !

الجهل والكبر والغرور والاستخفاف بأهل العلم صفات تكاد تكون ملازمة لكل الخوارج في كل زمان ومكان.

انظر إلى من يشرِّعون لهم، ويقضون في شؤونهم، ويفتونهم، لتجدَ أن معظمهم من النكرات الذين لا يُعرف لهم أي تاريخ أو إنتاج علمي، وبعضهم لم ينهِ المرحلة الجامعية، ومع هذا فهو يقضي في الدماء والأموال والنوازل الكبرى!

قد شدد علماؤنا القدامى على أهمية امتلاك طالب العلم الذي يتصدى للفصل في القضايا العامة.. للقدرة على الاستنباط والقدرة على معرفة أقوال أهل العلم في المسألة موضع البحث إلى جانب القدرة على الجمع بين النصوص وفهم أوجه التعارض بينها، كما أنهم شددوا على الاحتراز من الهجوم على الفتوى والتسرع في تحديد الموقف العلمي من القضايا الشائكة، وفي هذا السياق فهمَ أهل العلم الثقات قول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[1] حيث ذكر ابن القيم بأن القول على الله بغير علم هو أشد تحريماً من الفواحش والإثم والظلم والشرك بالله تعالى[2].

ولهذا كان أكابر العلماء يتحصنون من المجارفة بالفتوى بقول: لا أعلم، ولا أدري، كما أنهم كانوا يتدافعون الفتوى خوفاً من عاقبة الخطأ، وقد روي عن الفقيه الكبير عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه قال: «أدركت عشرين ومئة من الأنصار من

١- سورة الأعراف: ٣٣
٢- إعلام الموقعين ١: ٦٣

أصحاب رسول الله ﷺ تسأل أحدهم عن المسألة، فيردّها هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، حتى ترجع إلى الأول»[1]. وروى أحمد عن الشافعي عن مالك عن محمد بن عجلان أنه قال: «إذا أغفل العالم لا أدري أصيبت مقاتله»[1]. والنصوص عن أئمتنا في التشديد على المتصدرين للفتوى تفوق الحصر.

ب - الجهل بمقاصد الشريعة:

مقاصد الشريعة هي الغايات الكبرى التي تستهدف الشريعةُ الغراء تحقيقَها والحفاظ عليها من خلال أحكامها وتوجيهاتها العامة، ومن الواضح أن الاشتغال على المقاصد ظل على مدار التاريخ الإسلامي من عمل كبار الأصوليين والفقهاء، وذلك لحاجته الشديدة إلى الفهم العميق للشريعة، ووعي التصور الإسلامي العام للحياة، ومع أن للعناية بمقاصد الشريعة العديد من الفوائد العظيمة، إلا أن أبرزها على ما يبدو، يتمثل في التوفيق بين خاصتي الأخذ بما يتبادر إلى الذهن من معنى النص والالتفات إلى روحه ومدلوله على وجه لا يخل فيه المعنى بالنص، ولا النصُّ بالمعنى؛ لتجري الشريعة على نظام واحد، لا اختلاف فيه ولا تناقض.

إن مشكلتنا مع الغلاة والخوارج منهم على نحو أخص أنهم لا يتحرزون من إصدار الفتاوى في المسائل الكبيرة مثل التفاوض مع غير المسلمين والعلاقة معهم ومثل تطبيق أحكام الشريعة في أوقات الحرب، ومثل الآثار الاقتصادية المترتبة على النزاعات المسلحة داخل البلد الواحد.. ومن الواضح أن الحكم في هذه المسائل يقوم في غالب الأمر على تقدير المصالح والمفاسد حيث يتعين على الفقيه فهم الواقع بشكل جيد وفهم آثار الفتوى على ذلك الواقع؛ وإن للواقع الذي يجب النظر فيه بعداً محلياً وبعداً إقليمياً وبعداً دولياً، وهو بعد هذا واقع يعكس تشابك السياسي مع الاقتصادي ومع الاجتماعي والأخلاقي، وفهم هذا يحتاج إلى

اجتهاد جماعي وإلى استشارة أهل الاختصاص والخبراء في المجالات المشار إليها.

إن تنظيم الدولة في العراق وسورية (داعش) يقدم دائماً نموذجاً لضيق الأفق ونموذجاً للجهل بمقاصد الشريعة وقواعدها الكلية، والأمثلة على هذا كثيرة؛ وعلى سبيل المثال فإن منظري (داعش) يأخذون على المجاهدين السوريين أنهم حصروا العمل العسكري داخل الأراضي السورية، فهم (ولا تختلف عنهم القاعدة في هذا) يريدون إعلان الجهاد على العالم كله، وهذا يعبر عن جهل فاضح بالواقع وبسنة النبي ﷺ. إن العالم اليوم غير قابل لقيام أي إمبراطورية، ولا تستطيع أعتى دول العالم فعل ذلك، فالزمان زمان الدولة القطرية وزمان التكتلات الإقليمية والأحلاف الدفاعية؛ ونبينا ﷺ عمل على مصالحة أقوام للتفرغ لأقوام آخرين، فصالح قريشاً وتفرغ لغيرها من قبائل العرب، ثم إنه لم يدخل في قتال مع فارس والروم إلا بعد أن انتهى من الجزيرة العربية، بل إن أحكام الهدنة مع الكفار من أهم مباحث الفقه الإسلامي، وسبب الغلو في هذا هو اعتقاد الغلاة بتلازم عدم استعداء دول العالم أو محاربتهم مع الرضا بما هم عليه من كفر وانحراف، وهذا مما لا يلزم[1]

إن كل مسلم يتطلع إلى أن يغمر نور الإسلام أنحاءَ المعمورة وإلى أن تسود كلمة الله في العالمين، لكن الشريعة السمحة لا ترهق أبناءها بعمل ما يفوق طاقتهم، أو يعرِّض سمعة الإسلام العالمية للتشويه، وقد تركت تقدير ما يترتب من المصالح والمفاسد على أي خطوة وفي أي اتجاه لأولي الأمر وأهل العلم والخبرة.

جـ - غياب النظرة الفقهية المقارنة:

المقارنة هي أم كل العلوم، فأنت من خلالها تستطيع التعرف على الوزن النسبي لما لديك من آراء واجتهادات ونُظُم وأشياء، ومن خلال المقارنة يستطيع المرء رؤية الشيء من زوايا مختلفة، ليكوِّن عنه أوسع وأفضل رؤية ممكنة. إن الجاهل

١- شبهات الدولة الإسلامية: ١٥٤

حين يستمع إلى رأي من الآراء فإنه يتلقاه على أنه حقيقة من الحقائق أو مسلَّمة من المسلَّمات، ولهذا فإنه حتى يعرف أنه يستمع إلى وجهة نظر ليس أكثر، فإنه في حاجة إلى استماع أكثر من رأي في المسألة الواحدة، وإن أتباع الغلاة هم أولى الناس بهذا لأن معظمهم من أصحاب الثقافة الضحلة والتجربة المحدودة، والأفق الضيق.

من المعروف أننا حين نتحدث عن الكليات والمسائل الكبار، فإن الخلاف بين العلماء الأثبات يكون نادراً، وحين نتحدث في الفرعيات والجزئيات والمسائل المرتبطة بالواقع المعيش، فإن الاتفاق يكون نادراً، وإن معظم ما يثير الشُّبه لدى الغلاة والخوارج، ويُبعدهم عن النهج الصحيح هو النوازل الطارئة والقضايا المرتبطة بالواقع، ولا سيما الواقع الإقليمي والعالمي، ومن هنا فإن جمع الآراء المختلفة والوقوف على مستنداتها ومنازعها يعد مهماً للغاية حتى لا تبتعد الرؤية والفتوى عن جادة الصواب، وفي هذا السياق يقول عطاء الخرساني: «لا ينبغي لأحد أن يفتي الناس حتى يكون عالماً باختلاف الناس (أي العلماء) فإنه إن لم يكن كذلك ردَّ من العلم ما هو أوثق من الذي في يديه»[1]

إن من المشكلات المنهجية الكبرى عند الخوارج ومن يحلب في إنائهم من الغلاة في كل عصر ومصر أنهم يعودون في الفتوى وتشخيص الواقع إلى عدد محدود جداً من طلاب العلم (المغمورين غالباً) وهذا يعود إلى أن قياداتهم تسلِّط الضوء على عدد محدود من المنظّرين والمفتين حتى لا تتشتت صفوفهم وتضطرب توجهاتهم، كما أن تسفيه الخوارج لمعظم من يختلف معهم من أهل العلم واتهامهم لهم بالردة والعمالة والخيانة ومما لأة الحكومات يجعل الموثوقين لديهم من أهل العلم دائماً محدودي العدد، ولو تأملنا في المراجع الفكرية والفقهية الكبرى للخوارج في زماننا

١- انظر جامع بيان العلم وفضله:٢/ ٩٥ وما بعدها

لوجدنا أن عددهم قد لا يصل إلى عشرة أو خمسة عشر، وهذا مع أن من يمكن عدُّهم من العلماء والدعاة الكبار في عالمنا الإسلامي يبلغون المئات على أقل تقدير!.

إن تعصب الخوارج والغلاة لآرائهم يعود في جزء منه إلى وثوقهم في عدد محدود من طلاب العلم الذين يفكرون بطريقة واحدة، ويملكون خرائط ذهنية للواقع شبه موحَّدة.

د - تقدم مشاعر الغيرة على الوعي الفقهي:

شيء حميد ومطلوب أن يكون المرء مغموراً بمشاعر الانتماء والغيرة على شعائر الإسلام وعلى أعراض المسلمين ومصالحهم، بل إن فقد ذلك يعبر عن اعتلال الروح وبلادة الحس، لكن هذا شيء، والاندفاع نحو أعمال طائشة لا تزيد الطين إلا بلة شيء آخر.

حين كان رسول الله ﷺ في مكة فارت مشاعر العزة في نفوس بعض أصحابه، فقالوا: يا نبي الله، كنا في عز ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة، قال: إني أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم، فلما هاجر إلى المدينة أمره الله بالقتال[1]

إن المسلمين كانوا قلة في مكة، فكان دخولهم في حرب مع قريش مظنة لاستئصالهم، ثم إنه ﷺ أراد أن يمنح فرصة كافية للبلاغ المبين، ولهذا فإنه لم يبح لأصحابه الدخول في أي صدام مع كفار قريش.

خوارج زماننا وخوارج كل الأزمنة لا يفهمون هذه المعاني وحين تحدِّثهم عن الضرر الذي يسببونه للمسلمين من خلال سيل الأخطاء التي يقعون فيها يكون الجواب: ألم تسمع باغتصاب الحرائر في السجون؟ ألم تسمع بتعذيب إخوانك في المعتقلات؟ ألم تسمع بنهب الطغاة لخيرات البلاد؟ ألم ألم... ؟

---

١ – رواه النسائي

إننا حين ننظر في مآلات اندفاعاتهم نجد أنها لم توقف الاغتصاب ولا التعذيب.. لكنها أعطت المبرر للمزيد منه على ما هو عليه الحال في سورية والعراق وغيرهما مع الأسف الشديد! وربما كان الوقوع في هذا الخطأ الشنيع ناتجاً عن نظرة خاطئة للجهاد، حيث إن تصريحات كثير من الغلاة توضِّح بجلاء أنهم يعتقدون أن جهاد الكفار هو دائماً مصلحة إسلامية، ولو كان المسلمون هم الأضعف والأقل عدداً وعُدَداً، وهذا خطأ واضح، وفي هذا السياق يقول ابن القيم رحمه الله: «إنه تعالى نهى المؤمنين في مكة عن الانتصار باليد، وأمرهم بالعفو والصفح لئلا يكون انتصارهم ذريعة إلى وقوع ما هو أعظم مفسدة من مفسدة الإغضاء واحتمال الضيم، وإن مصلحة حفظ نفوسهم ودينهم وذريتهم راجحة على مصلحة الانتصار والمقاتلة»[1] وذكر ابن عابدين أن الجهاد ليس إلا للإيمان وإقامة الصلاة، فكان حسناً لغيره، والصلاة حسنة لنفسها[2].

إن المشاعر عمياء، وهي تحتاج إلى قيادة من الشرع والوعي وفهم الواقع وتقدير العواقب، وهذا مما يفتقر إليه أكثر الغلاة!.

هـ - ضرب قيمة التسامح:

لسنا في حاجة إلى كثير من البراهين على أن ديننا الحنيف هو دين التسامح والتفهم لخصوصيات الأمم والشعوب، فلولا تسامحه لما استطاع أن يكون حاضراً في كل مكان من الأرض، ولولا تسامحه لما كان اليوم أكثر الأديان انتشاراً واستقبالاً للمهتدين الجدد رغم كل حملات التشويه التي يتعرض لها، وليس أدل على تسامحه من أنه فتح الممالك واجتاح الإمبراطوريات دون أن يُكره الناس على الدخول فيه، بل إنه لم يتدخل في تفاصيل حياتهم، فلم يطلب من أحد تغيير لغته

١- إعلام الموقعين: ٣/ ١٧٩
٢- حاشية ابن عابدين: ٤/ ٢٩٥

أو زيه أو عاداته وتقاليده ما لم يصطدم بحكم شرعي واضح، وانطلق في كل ذلك من أنه دين للرحمة والمواساة وتقدير المصالح، ومن هنا كانت القاعدة الفقهية العظيمة: (الأصل في الأشياء الإباحة) ولهذا فإن مساحة المباح هي أضعاف مساحة المحظور؛ فقد حرَّم الإسلام الخمر، لكنه أباح مئات الأنواع من الأشربة، وأباح لأتباعه الزواج من الكتابيات (اليهوديات والنصرانيات) مع أنه حكم بكفرهن، وما ذلك إلا لأنهن من أهل الكتاب الذين يشتركون مع المسلمين في العديد من المبادئ والقيم والمفاهيم.

الخوارج اليوم ومن خلال تمكنهم في عدد من بقاع من الأرض شوهوا الإسلام، ورسموا له في أذهان الشرق والغرب صورة قاتمة ومفزعة، وتتولى (داعش) كبر هذه الإساءة، فهي لا تكتفي بأخذ الناس بالشبهة والظنة، لكنها مع هذا تغدر بالمسلمين، وتنقض المواثيق والعهود، وتُعيد الرق والسبي إلى الواقع المعيش بعد أن خلَّص الله تعالى منهما العالم، ولا تكتفي بالتوسع في القتل، لكنها تبتكر أنواعاً للإعدام يصعب على الإنسان مشاهدتها، وكان من آخرها الحرق بالنار والإغراق في الماء!

خطاب الخوارج اليوم هو خطاب غلظة وشدة وانتقام، فلا تكاد تلمح فيه أي معنى للرحمة والعفو والتسامح، وهذا يعود إلى أساس مشروعهم القائم على إيقاع النكاية بالأعداء، ولهذا فهم غرباء عن ديننا لأنه يسعى إلى إعمار الأرض وجعل الآخر المختلف معه جزءاً من بناء الأوطان وتوطيد أركان السلام والمعروف، وعلى هذا الأساس وجدت كل الملل والنحل لها مكاناً في ديار الإسلام بل إن المضطهدين من حكوماتهم وأبناء دينهم طالما لجأوا إلى ديار المسلمين، (كما حصل لليهود وغيرهم) ليجدوا فيها الأمن والأمان وحفظ الكرامة.

إن الغلاة وعلى رأسهم الخوارج محرومون من فقه فلسفة الإسلام في التعايش مع المخالفين، تلك الفلسفة التي جسّدها نبينا ﷺ في (٥٢) مادة قانونية اشتملت عليها

صحيفة المدينة المنورة، ولهذا فإنهم يظهرون دائماً في مظهر المتوحش في شكله وسلوكه ومنطقه ومواقفه، وقد تعلمنا من التاريخ أن التسامح والاعتدال والرحمة والعفو هي القيم التي تبني الحضارات، وهي التي تستطيع العيش طويلاً في كل الأمكنة والأزمنة.

و- وسوسة الطائفة المنصورة:

صحَّ عنه ﷺ بشكل مستفيض أنه قال: « لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى بن مريم عليه السلام، فيقول أميرهم: تعالَ صلِّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمةً لهذه الأمة[1] إن هذا الحديث يفيد استمرارية شعلة الهداية المعبرة عن استمرار الملة ونقاء الرسالة على مستوى المنهج وعلى مستوى السلوكيات والمواقف، وهناك اختلاف عريض بين العلماء في تحديد الطائفة المنصورة، وإن كانت شواهد الأحوال تدل على أن أبناءها موجودون في كل عصر من عصور الإسلام وفي الكثير من أمصاره وبلدانه، كما أنهم ليسوا من أصحاب تخصص معين، ففيهم العالم والمجاهد ورجل الأعمال والسياسي... والمغزى العام للحديث هو حث المسلم على أن يكون من الطائفة المنصورة من خلال التزام المنهج القويم ومن خلال خدمة الدين والأمة.

الخوارج والغلاة لا يشكُّون أنهم الطائفة المنصورة، وأنهم الفرقة الناجية من بين الفرق الكثيرة التي انقسمت إليها هذه الأمة، ولديهم حوافز ودوافع تدفعهم إلى هذا الاعتقاد، منها:

- اجتهادهم في العبادة وحرصهم على أداء الشعائر، وما يُرى منهم من شدة في

١- رواه مسلم وهناك روايات بألفاظ عدة تؤكد هذا المعنى.

القتال وبذل للنفس في العمليات الاستشهادية، مما يدل على صحة المنهج والقدرة على التضحية من أجله.

- اعتقادهم أن تكالب الكفار والعملاء والخونة عليهم يدل على أنهم صفوة الأمة وحماة بيضتها، فهؤلاء لا يجتمعون إلا على قتال الصالحين الصادقين.

– تنظيم الدولة يطمح إلى دولة إسلامية على منهاج النبوة، واضحة الراية، أما الفصائل الأخرى، فهي فصائل تقدم الوطنية على الإسلام، ورواياتها جاهلية غير معروفة الأهداف ولا النتائج[1].

ويؤكد اعتقادهم بأنهم الطائفة المنصورة حكمهم على معظم الكتائب المقاتلة في الشام والعراق بأنهم صحوات مرتدون، بل يعتقد كثير من الخوارج أن الشعب السوري كله مرتد، لأنه كان قبل الثورة يعبد (بشار الأسد) وهو لا يعرف نواقض الإسلام ولا الكفر بالطاغوت، ومن هنا فإن الدواعش مستعدون لضرب حصار على كل الكتائب الإسلامية المقاتلة بالتعاون مع بشار الأسد لأنه كافر أصلي أما الكتائب الإسلامية، فهي مرتدة !

الحقيقة التي لا مراء فيها أن الخوارج هم الطائفة المستدرَجة والمبتلاة بمفارقة الجماعة وتكفير المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم؛ ومشكلتهم ليست مشكلة عمل، ففي الملل المصنَّفة على أنها خارج دائرة الإسلام أفراد يبذلون المعروف، ويترفعون عن كثير من الرذائل، ويضحون بأنفسهم، لكن هذا ليس كافياً للحكم بإسلامهم، وعلى مدار التاريخ لم يكن الذي يفقتده الخوارج هو الإخلاص وكثرة التبتل والتعبد، وإنما اتباع المنهج الحق، وإن من الواضح أن سهولة تكفير المسلم

١ – انظر شبهات الدولة الإسلامية: ٣٧، ٥٢، ٧٨.

لديهم أدى إلى استسهال قتله وتعذيبه والاستيلاء على أمواله، وبهذا صار الخوارج فعلاً أبعد الفرق الإسلامية عن هدي محمد ﷺ وأبعد الناس عن الطائفة المنصورة.

٢ - القصور الفكري:

جرثومة الغلو كثيراً ما تصطفى لعملها أغشية (الدماغ) فهي أشبه بالحمى الشوكية أوالتهاب السحايا، وعند التأمل في الذهنية والخارطة الإدراكية السائدة لدى الغلاة نجد أن مشكلتهم هي مشكلة فكرية في المقام الأول، وذلك لأن عتادهم العقلي هو الواسطة التي يفهمون من خلالها الشريعة، ويدركون بها الواقع، وينظمون ردود أفعالهم على التحديات الماثلة؛ ولعلي أتحدث في هذا السياق عن النقاط الآتية:

أ - غياب الفكر الوسطي:

لن نكون دقيقين إذا قلنا: إن الفكر الوسطي غائب كلياً عن الساحة الثقافية والفكرية، فهناك في الحقيقة جهود كثيرة في هذا، لكنها ليست كافية، وتبدأ المشكلة عند الظن بأن الأصل في الناس هو الاعتدال والوسطية والرشد، وهذا يمكن أن يكون واقعاً لولا تزاحم المصالح وتضارب الأهواء والمعتقدات، والحقيقة أن الناس في البيئات الأقل تعلماً ينقادون بقوة لمشاعرهم، وهي بطبيعتها ميالة إلى التطرف، وإن الوعي والتعليم الجيد يساعدان على الحد من ذلك التطرف، وهما ضعيفان في كثير من البيئات الإسلامية، والدليل على هذا ضآلة الجهود التي تُبذل في ترسيخ المعاني والأفكار والسلوكيات التي تعزز الوسطية، وتناهض الغلو مثل قيم الحوار وتقبل الاختلاق والتسامح والتفهم للخصوصيات، والإيمان بالتغيير

المتدرج والإصلاح السلمي... ولهذا فإن انتشار الغلو هو نتيجة طبيعية للفراغ الموجود في البيئة الثقافية.

الإسلام يراهن في حركته الإصلاحية الكبرى على جاذبية مبادئه وعلى وعي الناس وضمائرهم؛ والغلاة يراهنون على جهل الناس وغفلتهم وظروفهم السيئة، وهم قادرون في أحيان كثيرة على النجاح لأنهم لا يبحثون عن أكثر من ١٪ من المسلمين، وهذه النسبة الضئيلة قادرة على إحداث تخريب هائل في الحياة العامة، ما دامت تجد نوعاً من التعاطف لدى نسبة أعلى من الحاضنة الشعبية.

ب- التخلف الحضاري:

دخلت أمتنا في نفق التخلف الحضاري منذ قرون عديدة، قد تزيد على سبعة أو ثمانية، حين خمدت شعلة التدين في النفوس، وحين فقدت الأمة روح المبادرة إلى جانب فقد القيادة الجامعة والفعالة؛ مما أدى في نهاية الأمر إلى التخلف المدني والعمراني، وهذان اللونان من التخلف يوجدان بيئة مثالية لاحتضان المفاهيم والأفكار المغذية للغلو والرؤية الحولاء للذات والعالم، ولعل من أهم تلك الأفكار والمفاهيم الآتي:

- التفكير الحدي القاطع الذي يقسِّم الناس إلى قسمين: قسم معنا وقسم ضدنا، ولا وجود لنصف صديق ولا لنصف عدو، وهذا يسهِّل على محدودي الثقافة الاندفاع إلى إيذاء العدو والفتك به.

التفكير الحدي يقوم على عمى الألوان حيث اللونان الأبيض والأسود فقط، وهذا يؤدي طبعاً إلى عدم رؤية القصور الذاتي والتركيز على ما يفعله الآخرون

تماماً كما كان يفكر ابن القبيلة في الجاهلية، وهذا واضح جداً لدى خوارج هذا الزمان وكل زمان.

- تقديس القوة والنظر إليها على أنها هي الحلّ، ويراد بالقوة دائماً القوة العسكرية، كما أن النصر هو النصر في ميادين القتال، ويتم غض الطرف عن النصر السياسي والاقتصادي والأخلاقي والصناعي، والذي يتأمل في المفردات التي يستخدمها الغلاة والخوارج اليوم يجد صدق ما أقول.

- يسود التفكير السطحي حين يفكر الناس في قضايا معقدة وعميقة بأساليب وأدوات فجة وبسيطة تماماً كما يفكر الخوارج اليوم حيث إنهم يظنون أنهم من خلال ألوف من الشباب يستطيعون هدم حضارات وتشييد حضارات ودول، وما دروا أنهم في هذا جزء من لعبة عالمية وإقليمية، وأن القضاء عليهم من خلال محاصرتهم وقطع الدعم عنهم ممكن في أي وقت!

- تتضخم النظرة إلى الذات حيث يظن الخوارج ومن يمضي في ركابهم أنهم محور الكون في الوقت الذي ينظرون فيه إلى الآخرين بازدراء واستخفاف، وهذه النظرة تجعل الخوارج في حالة من التشظي والانقسام المستمر بالإضافة إلى أنها تجعلهم يقيمون في حالة من الوهم الدائم!

- في حالات التخلف يجد الذين ابتُلوا به في (نظرية المؤامرة) عزاءً لهم؛ إذ يعثرون فيها على المسوغ لتقصيرهم وأخطائهم؛ وتنظيم الدولة لا يعتقد أن أمريكا والغرب وروسيا وحدهم منخرطون في التآمر عليه، وإنما بعض الدول العربية والجيش الحر في سورية والذين يعملون في السياسة أيضاً، باختصار كل من يخالفهم الرأي متآمر عليهم، وهناك بالطبع في شباب المسلمين من يصدق كل هذا !.

- في حالات التخلف تسود النمطية، ويسعى كثير من الناس إلى التطابق في كل شيء بسبب خوفهم من أي شيء مغاير لما نشأوا عليه، وهذا واضح لدى الغلاة، والخوارج منهم على وجه الخصوص، فهم لا يسمحون في المناطق التي يسيطرون عليها بأي رأي مخالف، فقد منعوا غير المنتسبين إليهم من إلقاء الدروس وخطب الجمعة، وغيروا في المناهج الدراسية، وهم بالطبع لا يرضون بالاحتكام لأي قضاء غير قضائهم مهما كان مستقلاً ومحايداً، ولهذا فالخوارج هم نتاج التخلف والداعمون لاستمراره، وما ذلك إلا لأن الانغلاق وضيق الأفق والغرور وضحالة المعرفة هي العناوين الأساسية لتجمعاتهم وتكتلاتهم!.

جـ - الجهل بالواقع وسنن التغيير:

لا يتجلى القصور الفكري للخوارج في شيء كما يتجلي في إدراكهم للواقع بأبعاده المختلفة وفي تعاملهم مع ذلك الواقع، فهم كما نعرف مشغولون جداً بذم واقع المسلمين والشكاية من سوئه ورداءته، ومن الطبيعي أنهم مشغولون عن تغييره إلى الأفضل. إن استخدام الخوارج للقوة بقسوة ممنهجة على أنها الوسيلة الأهم للإصلاح، يؤشر بوضوح إلى أنهم غير مدركين لتعقيدات الواقع الذي يريدون نسفه وإحلال واقع جديد محله، والمشكلة الكبرى أنهم ينظرون إلى الواقع نظرة إجمالية وبسيطة جداً، ويعتقدون أنه إذا تغير النظام السياسي فسوف يتغير كل شيء، ولا يدركون أن المشاكل التي يعاني منها الإنسان المسلم منوعة، فمنها ما هو سياسي ومنها ما هو اقتصادي وتربوي وتعليمي واجتماعي وأخلاقي... بل إن تغيير النظام السياسي لا يعني صلاح السياسة، فهناك الدولة العميقة الضاربة بجذورها في أعماق الحياة العامة، وهناك آلاف الأشخاص الفاسدين الذين ربطوا

مصالحهم بالفساد والاستبداد، وهم مستعدون للمقاتلة من أجل تلك المصالح.. حين تريد تغيير الواقع الاقتصادي – على سبيل المثال– في بلد من البلدان فإنك في حاجة إلى فهم مفاصل ذلك الاقتصاد ونقاط قوته وضعفه وفهم القوى اللاعبة والمؤثرة فيه، وهذا يحتاج إلى وضعه في سياقه الزماني والمكاني، وقد يتبين لك بعد تأمل أن بعض مشكلات اقتصاد البلد تعود إلى مشكلات سياسية أو عادات وتقاليد اجتماعية رديئة، أو أنها تعود إلى ضعف التعليم المدرسي والجامعي، وعليك في كل هذا أن تبتعد عن التمثل الذهني للواقع، وتعمد إلى إحاطته بعدد كبير من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابات دقيقة، كما أن عليك أن تمسحه بطريقة فنية لتحصل على كثير من الأرقام والإحصاءات المشخِّصة له، وبعد هذا تبحث عن الحلول.

إن لله تعالى سنناً في تغيير المجتمعات، ومع اتباع السنن هناك مراحل تمر بها عملية الإصلاح، وبعض هذه المراحل قد يستغرق عقوداً من الزمان وقد تعلمنا من اطلاعنا على حركات الإصلاح أن التغيير يجب أن يتسع لمساهمة كل أبناء الشعب، ويجب أن يعتمد على الانسجام مع أذواق الناس وتطلعاتهم، كما أن نجاحه مرهون بالحرص على تحقيق مصالحهم، ولابد للحصول على كل ذلك من توفير مراكز دراسات متخصصة وتكوين كتل بشرية حرجة تتبنى المفاهيم الإصلاحية...

مشكلة الخوارج والغلاة أنهم ينظرون إلى كل ذلك بعين الاستخفاف كما ينظر الجاهل بخطورة مرض السرطان إلى تعقيدات علاجه، ولهذا فإنهم ينتقلون من فشل إلى فشل ومن طامة إلى أخرى مع الأسف الشديد !

د- المفاهيم المغلوطة:

نستطيع القول: إن فهم الأمور والمصطلحات الشرعية على غير وجهها هو

البداية لتشكل الفكر الخارجي والغالي عموماً، وهذا ما يحكيه التاريخ والواقع بدقة، على نحو ما أشرنا إليه، وأعتقد أن تعقيد بعض المصطلحات وكثرة الشروط والاستثناءات في التعريفات، ستُنتج باستمرار فرصة لسوء الفهم والانحراف الفكري، وهذا ما ألمسه جيداً لدى شريحة واسعة من عوام المسلمين، وتكون العقائد في العادة هي المجال الخصب لهذا، وعلى كل حال فإن الأمية والمعرفة الضحلة تشكلان مدخلاً رحباً للخلط على حين أن المدنية تشكل مدخلاً للتمييز بين المتشابهات والمتداخلات.

أنا هنا لا أود استقصاء كل المفاهيم التي يَهم ويخلط فيها الخوارج، ولا تصحيح تلك المفاهيم، وإنما أريد الحديث عنها بوصفها سبباً لتكفير المسلمين واستباحة دمائهم ومفارقة جماعتهم.

- تكفير من لم يحكم بما أنزل الله:

يقول الخوارج: إن الحكام لا يحكمون بما أنزل الله إذن فهم كفار، ويجوز الخروج عليهم وانتزاع الحكم منهم وإعطاؤه لمن يقيم الدين، ويستدلون بقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1]. والمعروف لدى جماهير أهل العلم أن الحاكم إذا حكم بغير ما أنزل الله لا يكفر إلا إذا استحلَّ ما يفعل، أما إذا فعل ذلك اتباعاً لهوى أو رضوخاً لبعض الضغوط، أو من باب الإهمال وضعف الاهتمام، فإنه لايكفر، بل إنه إذا فعل ذلك درءاً لمفسدة أعظم من المصلحة المرجوة من الامتثال للشريعة في موقف من المواقف، فإنه قد لا يأثم بذلك لأنه مأمور بأن يتقي الله بمقدار ما يستطيع وجلب أعظم المنافع للمسلمين، ودرء أكبر الشرور والمفاسد عنهم.

---

١ – سورة المائدة: ٤٤

- الخلط في مفهوم (الجماعة):

صح عنه ﷺ أنه قال: ((من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقه الإسلام من عنقه))[1]، وحث صلى الله وسلم على لزوم الجماعة حين قال: ((عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بُحبوحة الجنة، فليلزم الجماعة ...))[2]

وقد اختلف علماء الإسلام في المراد بجماعة المسلمين التي أُمِرنا بلزومها، فمنهم من قال: إن المقصود بالجماعة جماعة العلماء المجتهدين، ومنهم قال: إن المقصود بالجماعة الصحابةُ رضوان الله عليهم دون غيرهم، وبعض أهل العلم يقول: إن الجماعة هي السواد الأعظم من أهل الإسلام، أي الكتلة الشعبية الكبرى على مستوى الأمة وعلى مستوى القطر، ومن العلماء من قيَّد ذلك بكون هذه الكتلة مجتمعةً على أمير، وانطلاقاً من كل هذا فإن من غير الوارد أن تكون جماعة المسلمين التي يجب الانحياز إليها، وتحرم مفارقتها عبارة عن فئة صغيرة مكونة من ألف أو عشرة آلاف رجل مهما كانت درجة تميز هذه الفئة، ومن هنا ندرك خطأ ما يفعله الغلاة والخوارج من الولاء الشديد لجماعاتهم إلى درجة تكفير من لا يمضي على منهجهم، ويسير في ركابهم، وهو من الجهل العظيم بمصطلح جماعة المسلمين، وفيه من منحِ العصمة لمن ليس معصوماً على نحو يرفضه العقل والشرع، وقد ترتب على هذا أن الخوارج لا يتقاضون إلى المحاكم الشرعية الموجودة ما لم يكن قضاتها منهم، لأنهم ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أمة من دون الناس، وهذا من ضلالهم وسوء فهمهم للأمور.

١- رواه الترمذي .
٢- رواه الترمذي .

- تحويل البيعة الخاصة إلى بيعة عامة:

جرت عادة الناس أن يتعاهدوا، ويتعاقدوا على الالتزام ببعض الأمور والقيام ببعضها، والكفَّ عن عمل بعض الأشياء، وكثيراً ما يسمون ذلك (بيعة) لأن الاتفاق الذي بين المتعاهدين يشبه الاتفاق الذي يجري بين المتبايعين، ومن المعلوم أن هناك بيعة خاصة، وبيعة عامة، فالخاصة كل اتفاق وتعاهد يجري بين شخصين أو جماعتين..على أمر معين، أما البيعة العامة، فهي ذلك العقد الذي تبرمه الأمة مع الإمام لإدارة الشأن العام، وهذه البيعة موضع احترام من المسلمين لأنها تشكل الصيغة المشروعة لجمع كلمتهم وتحديد قيادتهم، ويتولى هذه البيعةَ من ينيبهم الجمهور لذلك، وهم أهل الحل والعقد،(في عرف اليوم هم أعضاء مجلس الشورى أو البرلمان) ويصبح من تمت مبايعته واجب الطاعة على عموم الأمة فيما يُصلح شأنها، ولا تكون فيه مخالَفة للشريعة أو معصية لله تعالى، ومشكلة الغلاة أنهم يعمدون إلى شخص منهم فيبايعونه على أمور معينة، ثم يحاولون إلزام جماهير المسلمين بما بايعوا عليه، بل طالما طالبوهم ببيعة ذلك الشخص، وهذا ما يفعله تنظيم الدولة في سورية والعراق حيث قام ألوف من منسوبي ذلك التنظيم بمبايعة شخص على أنه خليفة للمسلمين، ثم أخذوا يطلبون من الناس البيعة له، وقد كانوا يأمرون في بعض الأحيان من لم يبايع الخليفة المزعوم بمغادرة الأرض التي يسيطرون عليها، وهذا من سوء فهمهم للبيعة، ومن افتئاتهم على الأمة، وفي هذا يقول عمر رضي الله عنه: ((من بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين، فلا يتابَع هو ومن بايعه تغرة أن يُقتلا))[1]

- الفهم المغلوط للولاء والبراء:

١- رواه البخاري .

حب الله ورسوله وحب الإسلام وأهله ونصرةُ المسلم، والدفاع عن مبادئ الإسلام وقيمه، هذه المعاني تمثل جوهر مفهوم الولاء في الإسلام، وفي المقابل فإن جوهر البراء يكمن في النفور القلبي من الكفر وأهله وبغض الطواغيت والأهواء والعقائد التي تصد عن سبيل الله، وتُبعد الناس عن ملة الإسلام، ويُفهم من هذا أن الولاء والبراء عبارة عن معتقدات ومواقف شعورية أكثر من أن تكون مواقف وسلوكيات وعلاقات؛ ولا ريب في أن رسوخ معاني الولاء والبراء في قلب المسلم يدفعه إلى تجسيدها في حياته العامة وفي علاقاته مع الآخرين، ومشكلة الغلاة عامة والخوارج خاصة هي أنهم يكفِّرون كثيراً من حكام المسلمين وعلمائهم وقادتهم، بل عامتهم بتهمة تولي الكفار وعدم التبرؤ منهم، وذلك بسبب مفاوضتهم لغير المسلمين في أمر من الأمور، أو استلام بعض المساعدات منهم أو التنسيق معهم في مسألة أو موقف أومن أجل دفع شر عن المسلمين أوتحقيق مصلحة لهم... كما يجري اليوم مع بعض الثوار في سورية وغيرها ... إن الغلاة يجعلون المعاملة من باب الولاء والموالاة، وهي ليست كذلك، كما أن الموالاة مراتب منها مايخُرج من الإسلام، ومنها مالا يخُرج منه.

إن العلاقات الدولية تقوم على تحقيق أكبر قدر ممكن من المصالح، ودفع أكبر قدر ممكن من المفاسد، ولا فرق بين أن تكون تلك العلاقة مع دولة مسلمة أو غير مسلمة، والمهم دائماً هو الإخلاص وحب الخير للإسلام وأهله والسعي إلى تحقيق مصلحة البلدان الإسلامية بدافعٍ من ذلك الإخلاص، ولا أريد هنا أن أسوق البراهين على ما أقول، لكنني أود أن أشير على نحو سريع إلى قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه حين كاتبَ كفار مكة سراً يخبرهم بعزم رسول الله ﷺ على غزوهم، وقد علم الرسول بذلك، وأرسل من أخذ الكتاب من حامله قبل أن يصل

إلى كفار مكة، فدعا ﷺ حاطباً، وقال: له ما هذا؟ قال حاطب: لا تعجل عليَّ يا رسول الله! إني كنت امرءاً ملصَقاً في قريش (أي هو حليف لهم وليس من أنفسهم) وكان ممن معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ لديهم يداً، يحمون بها قرابتي، ولم أفعله كفراً، ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام . فقال النبي ﷺ: (صدق). فقال عمر: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق؟ فقال ﷺ: إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم[1]

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن ما وقع من حاطب ذنب، وليس كفراً مع أن حاطباً سعى في إفشاء سر حربي من أسرار الدولة مما يشبه الخيانة العظمى لتأثيره الكبير في سير المعارك، لكنه ﷺ عفا عن الرجل حين تبين له أن ذلك لم يكن قدحاً في الولاء والبراء، وإنما كان لمصلحة .

إن شريعة الإسلام ترسم الأطر الصُلبة والخطوط العريضة الواضحة، ولكنها في الوقت نفسه تراعي ظروف المكلفين وما جُبلوا عليه من الخطأ والنسيان وسوء التقدير ورعاية المنفعة الخاصة إلى جانب إتاحة الفرصة لأولي الأمر كي يوازنوا بين المصالح والمفاسد في القضايا الكبرى المتعلقة بالشأن العام، بل إن الشريعة الغراء تُضفي على مفاصلاتها العقدية مسحة السماحة واليسر، لأن هداية الخلق وجذبهم إلى الدين القويم من المقاصد الثابتة للشريعة، ونلاحظ تلك السماحة في الكثير من الأمور، منها:

– حفظ ما بيننا وبين المعاهَدين من عهود ومواثيق ما داموا ملتزمين بها .

---

١ – قصة حاطب في الصحيحين .

- حرمة دماء أهل الذمة والمعاهَدين ما داموا على عهودهم .
- اختلاف الدين لا يلغي الحقوق والذوقيات المترتبة على علاقة القرابة .
- صيانة أعراض أهل الذمة وأموالهم وبرهم ونصحهم فيما يعود عليهم بالنفع.
- جواز الإحسان إلى الكافر ولو كان مقاتلاً لنا ما لم يؤثر ذلك في تقويته علينا .

هذه المعاني العظيمة التي تجعل من الإسلام دين الرحمة والتواصل الإنساني لا يعرفها الغلاة، ولهذا فقد شوَّهوا الصورة العالمية للإسلام، وأسهموا في إبعاد الآخرين عن الاهتداء إليه .

٣- التشوه الثقافي:

عليَّ في البداية أن أعترف بأننا نمارس نوعاً من التعسف حين نفصل بين (الفكري) و(الثقافي) وذلك لأن الثقافة بما هي أفكار وعقائد ونظم وتقاليد وعادات ... تشكل في الحقيقة العقل الثاني للفرد وللمجتمع على حد سواء، لكن ربما كان (الفكر) ينزع إلى أن يكون فردياً، على حين أن الثقافة تظل ذات طابع جمعي واجتماعي، وإن حرصي على تسهيل إيصال المقصود بالإضافة إلى تلبية بعض المتطلبات الفنية تجعلني أؤثر مثل هذا التعسف .

إذن أنا هنا أتحدث عن التشوه الذي يصيب الثقافة الاجتماعية، وأتحدث عن ملوثات الجو العام في البلاد الإسلامية عامة والعربية خاصة مع التأكيد على شيء مهم، هو أن ما أذكره من أسباب دافعة إلى التطرف والغلو يكون مفرَّقاً بين الغلاة، فواحد اندفع إلى الغلو بسبب نمطية مجتمع، وثان بسبب القراءة الخاطئة لنصوص الشريعة وثالث بسبب الإحباط أوالتعصب ...، كما أن من المهم أن أؤكد مرة أخرى أنه قد ينشأ الكثير من الوسطيين في بيئة، كل ما فيها يدعو إلى

الغلو والتطرف، بسبب مناعة معينة اكتسبوها من مصدرٍ ما أو بسبب تركيب نفسي أو عقلي خاص. وهذه أهم قسمات التشوه الثقافي .

أ- التعصب:

التعصب لشخص أو جماعة أو فكرة أو مبدأ أو سلعة .. شيء ملازم للوجود الإنساني، والذي يختلف من مجتمع إلى مجتمع ومن زمان إلى زمان، هو الشدة ومدى الانتشار.

التعصب ينطوي على عدد من المعاني، ويتصل بعدد من المفاهيم، منها:

- يلتصق المتعصب التصاقاً جامداً بالأصل سواء أكان هذا الأصل مبدأ أوعقيدة أو قبيلة أو منطقة ...وهذا الالتصاق يعطي للشيء المتعصَّب له حكماً نهائياً وقيمة مطلقة، فإذا كان المرء متعصباً لقبيلة، فإنه يرى أنها جمعت كل المحاسن، والمحامد، ولا توازيها في ذلك أي قبيلة أخرى، مما يجعله يشعر بالامتنان لانتمائه إليها، وفي هذا الصدد يمكننا القول: إن التعصب هو غلو في الانتماء .

- التعصب يعني كذلك إصدار الأحكام على موضوع معين قبل فحص الحقائق المتعلقة به، فهي أحكام مستعجلة ومبتسرة، كما تفعل الأم المتعصبة لولدها، فهي ترفض كل التهم والانتقادات الموجَّهة إليه، بل هي غيرمستعدة لسماع أي نقد أواتهام .

التعصب ليس فكرة مسيطرة على شخص بل هو مركَّب من المعتقدات والمشاعر والسلوكيات، فالمتعصب منفعل ويحتفظ بدرجة كبيرة من الحماس لما يتعصب له، وهذا مع الأفكار المسيطرة عليه يدفعه إلى اتخاذ المواقف والسلوكيات الحادة والجازمة .

التعصب يشكل لصاحبه مايشبه النظارة السوداء مع أنه أيضاً يشبه غمامة تغشى عقول المتعصبين، فكم رأينا منهم من يترك الأدلة القطعية الصريحة، ويلجأ إلى الأدلة المحتملة والمشتبهة، وكم رأينا في المتعصبين والغلاة من يؤثر قول شيوخه وعلماء مذهبه على الأدلة الصحيحة والصريحة، ومنهم من يبيح لنفسه الاجتهاد، ويحرِّمه على مخالفيه لأنه في الحقيقة لا يرى إلا نفسه ! .

المتعصب على خلاف المتسامح لا يقر بمشروعية الاختلاف، ويعدُّ تباين الآراء والاجتهادات نكبة على الأمة، وهذا يعود إلى اعتقاده بأن مخالفة أفكاره ومعتقداته من قبل الآخرين يهددها على نحو مباشر، بل إنه يتجاوز ذلك إلى الاعتقاد بأن أي تهديد لأفكاره هو تهديد لوجوده في هذه الحياة، وهذا يفسر على نحو جليّ شدة الغلاة على مخالفيهم، وقد قتلوا مئات الأشخاص من الشباب المتدين لمجرد خلافهم معهم في بعض الاجتهادات مما لا يقره دين ولا عقل ولا عرف !

يشيع في علم النفس الاجتماعي مصطلح (القوالب الجامدة) والتي تعني تلك الصور المرجعية المعششة في رؤوس الغلاة والمتعصبين، فمن خلال تلك الصور يفسرون الأحداث، ويحكمون على الناس، ويصنفونهم إلى أصناف شتى على أسس واهية مثل طول الشعر وشكل الثوب والتلفظ ببعض الألفاظ أثناء الحديث والتطرق لبعض الموضوعات .. المتعصب يعرف القريبين منه والبعيدين عنه من خلال تلك المؤشرات الهامشية، وهذا إن دلَّ على شيء فلا يكون سوى السطحية وسقم الفهم .

إذا تأملنا في حال الخوارج فإننا نجد في أشخاصهم وفي مجموعاتهم كل معاني التعصب التي أشرنا إليها، وتزداد خطورة هذه المعاني بالطبع حين يكون الخارجي مسلحاً أو متبوئاً لمنصب كبير.

والذي أود أن أشير إليه هنا أن ثمة علاقة جدلية بين الخوارج والغلاة، وبين البيئة التي يصنعونها لأنفسهم، فهم يستمرون في غلوهم من خلال عيشهم في بيئة مغلقة ومتعصِّبة، ومن وجه آخر فإن تلك البيئة تستقطب باستمرار الغلاة والمتعصبين، وكلما ورد إليها شخص متعصب أكثر كانت أمامه الفرص للقيادة والنفوذ أكبر ! .

ب- الإحباط الاجتماعي:

الإحباط الفردي يحدث في كل المجتمعات بسبب عجز الفرد عن تحديد أهدافه وتحقيق رغباته وتكرار حالات الإخفاق في مشروعاته والوفاء بالتزاماته، ويزداد الشعور بالإحباط كلما كانت عوامله خارجية كظلم يقع على الفرد، وكوجود عوائق قانونية أوعرفية استثنائية وغير مألوفة. أما الإحباط الاجتماعي العام فهو شكل من أشكال التشوه الثقافي وكثيراً ما يكون ذلك واحداً من منتجات التخلف ومخلفاته .

الإحباط الاجتماعي نوع من تسمم البيئة الاجتماعية حيث يشعر الناس بالارتباك وصعوبة الحركة، كما يشعرون بالإخفاق العام بسبب بطء التنمية وانخفاض مستوى المعيشة وخنق روح الإبداع، ولا شك في أن معالجة الإحباط الاجتماعي أصعب بكثير من معالجة الفردي، لأن المرء في الحالة الأولى كثيراً ما يفقد القدوة والسند والمرشد، حيث يصبح الإحباط مما عمت به البلوى في الحياة العامة. الإحباط الاجتماعي يحرم السواد الأعظم من أبناء المجتمع من نعمة التوازن التي يتمتع بها المجتمع المتفائل، والقادر على الوصول إلى أهدافه، وذلك الحرمان يدفع في اتجاه القرارات الخاطئة، وقد يدفع قي اتجاه ارتكاب أعمال عنيفة، كما يفعل اليوم بعض الشباب المتدين، كما أن الإحباط يُفقد الناس ولاسيما

الشباب الثقةَ بقيادات المجتمع ورموزه، مما يدفعه إلى أن يلوذ بالغلاة والخوارج بوصفهم ساخطين على كل شيء في هذه الحياة .

إن الإحباط يشكل بيئة مثالية لليأس، ويمكن لليائس أن يفعل أي شيء ولو أن يفجر نفسه لتلقيه أمراً بذلك، وقد ثبت أن مسألة الانتحار ليست خاصة بالبشر، فهناك من الطيور والحيوانات والأسماك ما يقتل نفسه أو يكف عن الطعام حتى الموت، كالذي يفعله العقرب والأرنب والنسر والدلفين ...في بعض الظروف الإحباط يعني انسداد الأفق الصحيح في نظر المحبَطين على الأقل وبانسداده تنفتح الآفاق الخاطئة ! .

جـ- ثقافة النمط الواحد:

تساعد الثقافة المنمَّطة على شيوع الانحراف الفكري ودفع بعض الشباب نحو الغلو واعتناق الفكر الخارجي، وذلك لأن الثقافة المنمَّطة تقوم على الأفكار الجاهزة، كما تقوم على التمسك المبالَغ فيه بالعادات والطقوس الموروثة من دون تأمل في مدى ملاءمتها للحياة الجديدة. في المجتمع النمطي يكون النقاش ضعيفاً، كما يكون قبول الآخر المختلف أيضاً ضعيفاً، ويشعر كثير من الطامحين والمتطلعين إلى الانفتاح بأنهم مقيدون بقيود غير شرعية ولا منطقية، وفي هذه الحال يبدأ محترفو الاصطياد في الماء العكر بعملهم على نحو كفء وناجح لأنهم يحاولون تقديم المخرج لكل متمرد على مجتمعه من خلال ذم عادات المجتمع وتقاليده وتحطيم رموزه، وهذا ما يفعله الخوارج بالشباب المسلم، وهذا مشاهد في واقعنا المعيش، فأكثر أتباع داعش من السوريين ليسوا من المدن المتحضرة والمنفتحة، ويصعب عليَّ أن أتصور قيام خلافة البغدادي وإذعان الناس لها في مدينة مثل دمشق أو حلب، وهذا لا ينفي بالطبع وجود مئات من الأوربيين من الخوارج،

فهؤلاء لم يندفعوا للقتال معهم بسبب نمطية مجتمعاتهم، ولكن لأسباب أخرى مثل الجهل بالإسلام أو لكونهم من أبناء الجاليات المسلمة في أوربا حيث الشعور بنوع من الرفض الاجتماعي .

في المجتمع النمطي يكثر التلقين، وتسود الحَرفية، وهاتان الصفتان موجودتان بقوة في طريقة تفكير الغلاة ومحاكمتهم للأمور .

لا شك في أن النمطية تتراجع اليوم، ولكن اندثارها يحتاج إلى وقت طويل، وإلى أن يحين ذلك الوقت، فإن المجتمعات المنمطة والثقافات النمطية تظل قادرة على تصنيع الفكر الغالي وإنجاب الغلاة .

د- تقديس الماضي:

عليَّ أن أقول في البداية: إن الكتاب والسنة ليسا من التراث، وهما خارج حركة الزمان والتاريخ، كما أن عليَّ أن أقول أيضاً: إن من الطبيعي أن نستلهم تراثنا وتاريخنا، وأن نعتز بذلك التراث فنحن أحفاد من بنوا حضارة هي من أعظم الحضارات التي عرفها البشر، هذا كله يعني أنه لايصح جعل تراثنا خارج دائرة النقاش .

مشكلة الرجوع إلى الماضي تتجلى في الإيغال فيه إلى درجة إعاقتنا عن رؤية الواقع والاتخاذ من معطيات الماضي والحاضر مدخلاً ووسيلة للاستعداد للمستقبل والتعامل معه، وهذه المشكلة موجودة لدى الغلاة بقوة، فهم مولعون بقياس الحاضر على الماضي، والظن بأن التاريخ يعيد نفسه مع اختلاف الظروف والأوضاع والمتطلبات ....

تنظيم الدولة يظن أنه يستطيع إقامة إمبراطورية إسلامية عن طريق الاعتماد على رجال لديهم من العاطفة والحماسة كتلك التي كانت لدى الخوارج الأُول

مع أن النصر في المعارك القائمة على الأسلحة الإلكترونية والليزرية والطائرات بدون طيار والصواريخ العابرة للقارات لا يحتاج لا إلى العاطفة ولا إلى الشجاعة، وإنما العلم والخبرة والمال والمهارة ...وهم يظنون أنهم يستطيعون ببضعة آلاف من الملثمين هدم كيان عشرات الدول وإقامة نظم بديلة فيها متجاهلين الأحلاف والمصالح الدولية في العالم، ويظنون أيضاً أن أسلوب إدارة دولة يسكنها ثلاثون مليوناً لا يختلف عن أسلوب إدارة بلدة، عدد سكانها ثلاثون ألفاً، ويتوهمون مع كل هذا أن الشعوب العربية التي قدمت الكثير من أجل حريتها وكرامتها مستعدة للخضوع مرة أخرى من خلال التخويف والقتل والتعذيب، أو من خلال الرشوة والإغراء بالمكاسب المادية، وهذا من استخفافهم بالناس وعدم فهمهم للواقع الجديد وعدم فهمهم لعقلية ونفسية الإنسان الحر... وإن السبب في كل هذا هو عدم قراءة الواقع بمعطياته، وتعقيداته والتوهم بأن الأساليب والأدوات القتالية والإدارية التي نجحت في الماضي تستطيع أن تحقق النجاح في كل زمان ومكان ! .

إن الشرط الأول والأهم لنجاح أي أسلوب إصلاحي وأي أداة تغييرية هو الملاءمة للمعطيات السائدة، فالمدفع كان في يوم من الأيام قادراً على تغيير وجهة معركة بأكملها إذا لم يكن لدى العدو سوى المسدس أوالبندقية، لكنه اليوم قد لا يحقق أي شيء حين يكون لدى عدوك القنابل الذكية والصواريخ الموجهة عن بُعد والطائرات التي تقصف من ارتفاعات شاهقة .

إن كثيراً من الغلاة والخوارج يعتقدون أن الماضي هو أفضل من الحاضر في كل شيء، ولهذا فإنهم يتعاملون معه بعشوائية واضطراب شديدين، والنتيجة هي خراب بلدان بأكملها وإزهاق أرواح عشرات الآلاف من الشباب ومن الأبرياء والضعفاء، والمحصلة لن تكون سوى درجات تحت الصفر!

إن مشكلة الخوارج أنهم مفتونون بالماضي دون أن يأخذوا العبرة منه مع أن الاستفادة من دروس الماضي، هي شطر فوائد الرجوع إليه، ولو أن الخوارج نظروا إلى العشرين سنة الماضية، وما فعلته القاعدة في عدد من البلدان التي نشطت فيها لوجدوا أنهم لم يستطيعوا بناء نموذج ناجح، بل إنهم أثاروا العالم ضد المسلمين، وأعطوا للقوة الاستعمارية والمعادية والمنافسة الذرائع الكافية لتخريب البلاد الإسلامية وتهجير أهلها ! .

هـ - الشوفينية الاجتماعية:

تعني الشوفينية في الأصل المغالاة في حب البلد أو الأمة أو القبيلة أوالعرق، وهذه المغالاة تقترن دائماً بالاستخفاف والاستهانة بما لدى الآخرين من إمكانات وميزات وعطاءات، وقد أرشدنا ربنا عز وجل إلى عدم تزكية النفس، كما أرشدنا إلى أن مقياس التفاضل بين الأمم والأفراد هو (التقوى) على نحو ما نجده في قوله سبحانه: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾[1] وقوله: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾[2] .

أستطيع القول: إن مثقفي الأربعينيات وما بعدها من القرن الميلادي المنصرم ركزوا تركيزاً واضحاً على الأمجاد التاريخية للعرب والمسلمين حين عمدوا إلى الإشادة بالمنجزات الفذة، ونشروا إشاداتهم على أوسع نطاق، كما أن كتّاب الصحوة الإسلامية في السبعينيات من القرن نفسه قد أشادوا أيضاً بالحضارة الإسلامية وتفوقها .. وأنا وإن كنت أتفهم دوافع كل ذلك ودواعيه إلا أن المبالغة في مديح أنفسنا وتاريخنا لا تصب في مصلحة التوازن العقلي والنفسي الذي نسعى إليه.

١- سورة النجم: ٣٢

٢- سورة الحجرات: ١٣

إن الشوفينية الألمانية أنجبت هتلر، والشوفينية التركية أخرجت جماعة الاتحاد والترقي وأخشى أن يكون ثناؤنا المبالَغ فيه على مجتمعنا وعلى تاريخنا قد ساعد على وجود القاعدة و داعش وجماعات التكفير المختلفة ! .

هناك من يمتدح المجتمع المسلم، وهناك من يمتدح المرأة المحجبة، وهناك من يمتدح نظام الحكم في الإسلام وأخلاق الفاتحين المسلمين، وهناك من يجعل من أمة الإسلام الأمة الراعية للحقوق والمشفقة على الضعيف والفقير والمسكين مع الغمز واللمز بغير المسلمين، وهذا كله على ما فيه من حق وصواب يولِّد لدى الشباب درجة من الاحتقان النفسي ودرجة من سوء الفهم للآخرين ودرجة من سوء فهم الواقع والتصرف فيه .

نحن أمة من الناس أكرمنا الله بالإسلام، لكن في أشخاصنا وفي تاريخنا وفي مؤسساتنا ... الإيجابيات والسلبيات، والصواب والخطأ، وفي واقعنا الكثير من البقع السوداء بسبب تخلفنا عن عقيدتنا ومبادئنا، وعن العصر الذي نعيشه .

٤- التأزم النفسي:

قد أجد نفسي مدفوعاً إلى التأكيد على العلاقة الجدلية بين الأفكار والمشاعر، وفي نهاية المطاف بين التركيب العقلي للفرد ومركَّبه النفسي، وفي مسألة الغلو على نحو أخصّ أعتقد أن البدايات تكمن في الانحراف الفكري، والذي كثيراً ما يتجلى في الفهم الخاطئ للإسلام والتدين، كما يتجلى في فهم الواقع وفهم كيفية التعامل معه، ثم يدخل الشخص في (الدورة المعيبة) حيث يؤدي الانحراف الفكري إلى إنتاج مشاعر الإحباط والحقد والانتقام وسهولة الحكم على الناس بالردة ثم سهولة قتلهم وتعذيبهم والاستيلاء على أموالهم، وتدفع هذه المشاعر

من جهتها الدماغ إلى توليد مزيد من الأفكار والمسوغات والبراهين الداعمة لها، وهكذا حتى يصل الأمر إلى مرحلة الانفجار الذاتي!

إن الذي أود أن أثبته بوضوح هو أن تحليلنا للأسباب الفكرية والنفسية والسياسية للغلو والتطرف وممارسة العنف، لا يعني تسويغ ذلك أو التماس الأعذار لأصحابه، فهذا غير جائز بكل الاعتبارات، وإنما نرمي من خلال ذكر أسباب ظاهرة الغلو هذه إلى فهم هذه الحالة على الوجه الصحيح ثم معالجتها من خلال تسليط الضوء على جذورها وأسبابها، ومن تلك الأسباب:

أ- الشعور بالإهانة:

فطر الله الناس على قدر متفاوت من الشعور بالكرامة والاعتزاز بالذات، ولهذا فإن المرء حين يشعر بالعدوان عليه أوعلى بلده أوعلى بعض الرموز التي يعتز بها... يشعر بالإهانة، وهذا الشعور كثيراً ما يدفع صاحبه إلى الانتقام ممن أهانه، فإن لم يستطيع عمد إلى الانتقام ممن يعتبرهم قريبين منه أو متحالفين معه، وعلى سبيل المثال فإن معظم الغلاة والخوارج يعتقدون أن الغرب (الصهيوني، المسيحي) هو الذي دمر العالم الإسلامي، وأن ما يعانيه المسلمون من صعوبات في شتى جوانب الحياة بالإضافة إلى انتهاك حرمة المقدسات ... كل ذلك بسبب المؤامرة الكبرى على العالم الإسلامي، ويضاف إلى الغرب طبعاً كل من يعتقد الغلاة أنهم وكلاؤه أو حلفاؤه أو مروّجون لأفكاره ومبادئه، وهذا كله يجعل ضرب مصالح الغربيين هدفاً مشروعاً، وتعد أمريكاً على رأس قائمة الذين يجب فعل ذلك بهم، وهذا واضح جداً على الصعيد العملي .

إذن قد تكون ممارسة العنف والانتقام عبارة عن وسيلة لاسترداد الكرامة

المهدورة، والرد على ظلم فادح .. وأنا هنا لا أصدر حكماً أخلاقياً على هذا، وإنما أشرح وأوضِّح .

ب- الشعور بالعجز:

لكل واحد منا عدد من الأهداف المحورية التي يعتقد أن بلوغها سيؤثر تأثيراً كبيراً في حياته، هذا يهدف إلى التخرج من الجامعة، وهذا يسعى إلى الحصول على وظيفة، وثالث يسعى للغلبة في منافسةٍما ..إن الإخفاق في الوصول إلى أي هدف كبير قد يجعل بعض الشباب يشعر بالعجز والضعف مما يحرِّضه على رد الاعتبار لذاته بطريقة من الطرق، وبعضهم يجد أن أحسن وسيلة لذلك هي خوض تجربة جديدة خارج السياق وبعيداً عن كل الرهانات السابقة، وأي تجربة أعظم من الجهاد في سبيل الله تعالى، وأي هدف أنبل من الشهادة، هذا ما يسمعه ويقرؤه ويشاهده كثير من الشباب في إعلام الخوارج، فقد رأيت من بعض من يحملون شهادات عليا من يحمد الله تعالى على العيش في أرض الخلافة حيث الفردوسُ المفقود والمعجَّل من نعيم الآخرة ! .

إن الذي ينظر في أحوال العديد ممن يحتلون مناصب كبيرة لدى داعش والقاعدة وأشباهها لا يخامره أدني شك في أن مغادرة الفشل إلى تبوء مكان قيادي مهم هو من الأمور السهلة، والمطلوب فقط إظهار الكثير من الغلو والكثير من الولاء، وبعض البراعة في صوغ العبارات الرنانة !

جـ - طلب التطهر:

يقع بعض الشباب المسلم في بعض الكبائر والموبقات، وبسبب الإيمان الذي في صدورهم وكونهم يعيشون في مجتمع مسلم تشتعل في نفوسهم معارك حامية

بين المبدأ والمعتقد من جهة وبين السلوك الواقعي غير المشرِّف من جهة أخرى، وهذا يسبِّب الكثير من الآلام النفسية مع نوع من ازدراء الذات، وفي حالة كهذه يكون الخلاص من وخز الضمير في نظر بعض الشباب بتقديم النفس في عملية استشهادية ضد أولئك الذين لا يطبقون شرع الله تعالى أو يتحالفون مع الكفار المجرمين. نعم إن الانتقال من النقيض إلى النقيض أمر مألوف في الحياة الإنسانية ولاسيما في غياب القدر المطلوب من التوجيه والإرشاد الفكري والشرعي للأجيال الجديدة بل إن بعض الوعاظ ومحدودي التفكير يزيدون الطين بلة حين يرسِّخون في أذهان الشباب بعض المفاهيم الخاطئة على مبدأ: (أين نحن منهم)؟!

وكثيراً ما يتم ذلك من خلال مقارنة عامة أهل زماننا بخواص أهل القرون المفضلة ورجالات السلف عموماً، وهذه المقارنة غير العادلة تجعل معظم شبابنا يشعرون بالذنب والتقصير تجاه الواجبات والمتطلبات الشرعية والأخلاقية! .

د- البواعث الشخصية:

هي مجموعة من العوامل الخاصة والدافعة إلى الغلو ومجموعة من الحوافز المحرِّضة على الإقدام على بعض الأعمال العنيفة والخالية في كثير من الأحيان من أي مسحة إنسانية أو أخلاقية، وهذه العوامل والحوافز متشابكة وغامضة إلى حد أن المتشبعين بها قد لا يكونون على الوعي بها بالقدر المطلوب.

من تلك البواعث والمحرضات:

- التخلص من الفراغ الفكري والروحي والانكشاف الثقافي حيث إننا في زمان يشعر فيه كثير من الشباب بالاغتراب ونوع من الضياع بسبب غياب

الأهداف الكبرى والتدفق المعرفي والثقافي الهائل من كل حدب وصوب، وبسبب تفكك كثير من الأسر. داعش والقاعدة والمنظمات الغالية الأخرى تقدم للشاب الغطاء الفكري والروحي الذي يحتاجه من خلال هدف واضح هو نصرة دين الله تعالى وصد الهجمة الصهيونية/ المسيحية عن أمة الإسلام، كما تقدم له منظومة من القيم المتماسكة، قيم الفداء والتضحية والإقبال على الآخرة والذب عن الأرض والعرض ... معانٍ صحيحة وقيم نبيلة لكنها مع الأسف موضوعة في غير سياقها ومسخَّرة لضرر الأمة وليس لنفعها.

- ضعف الأنا العليا والذي يعني ضعف السيطرة على الغرائز والرغبات، كما يعني في الوقت نفسه التبعية للآخرين والمضي خلف دعاة الغلو على وسائل التواصل الاجتماعي وغيرها .. كثيرون أولئك الذين التحقوا بالمنظمات المتطرفة ليخرجوا من عالم الجهالة حيث لا يعرفهم أحد إلى عالم الشهرة، وبعضهم خرج بذلك الالتحاق من عالم الفقر إلى عالم الغنى، كما أن السلاح الذي صار بيده يعطيه شعوراً بالقوة والسيطرة على الآخرين ... عالم الغرائز عالم مشحون بالشهوات والمشتهيات، وكثير ممن يعيشون فيه يتنفسون هواءه باستمتاع ودون معرفة بماهية ما يتنفسونه !

- بعض الناس مصابون بفقد التوازن والاتزان الشخصي في التعامل مع الأحداث، أي أن ردود أفعالهم غير متناسقة مع الأحداث التي تقع في الحياة العامة، وذلك بسبب خلل في إدراكهم لطبيعة ما يجري، مما يدفع كثيرين منهم إلى الالتحاق بركب الغلاة على أمل أن يكون في ذلك الردُّ المناسب على التحديات الماثلة، وقد شاهدنا من الشباب المسلم من يريد تحرير الكرة الأرضية ومواجهة العالم بأسره من أجل هزيمة اليهود واسترجاع فلسطين أو الأندلس .. !

- الشعور بالنقص قد يدفع الشباب إلى القيام بأعمال فظيعة كي يقنع نفسه وغيره بأنه قادر على فعل كل ما يفعله باقي الناس، وهذا المعنى مفهوم تماماً منذ القدم حين قال أحد الحكماء: (كل ذي عاهة جبار) ومع أن لهذه القاعدة الكثير من الاستثناءات إلا أن من الصحيح أيضاً أن من يشعر بالنقص قد يقوم بأعمالٍ تلفت أنظار الناس عن رؤية نقصه، أوتجعله يعوِّض ذلك النقص عن طريق التفوق في مجال من المجالات. أعود فأقول: إن التشوهات والتأزمات النفسية الدافعة إلى الغلو كثيرة ومتشابكة مع بعضها ومع عوامل أخرى قد تكون اقتصادية أو سياسية أو فكرية مما يجعل وضع اليد على الأسباب الدافعة إلى الغلو عند مجموعة كبيرة من الناس في غاية المشقة والتعقيد ! .

٥- الأوضاع السياسية: إذا صح القول: إن عدم حضور الفكر الوسطي في الساحة الثقافية بالقدر الكافي أدى إلى إيجاد فراغ ملأه الغلو والتطرف، فإنه يصح لنا القول: إن ضعف حضور السياسة في الساحات العامة ساعد على انتشار العنف والتطرف، وذلك لأن بين السياسة والعنف نوعاً من التضاد، السياسة تعني تدوير الزوايا وإدارة المشكلات بالقانون وعن طريق التواصل والحوار والتفاوض، والسياسة تعني سلسلة متصلة من الأعمال والمبادرات التي تحافظ على التوازن الثقافي والاجتماعي في البلد، كما أن السياسة تعني رصد كل الأسباب التي تؤدي إلى التوتر داخل البلاد والعمل على تحجيمها قدر الإمكان، ولهذا فإننا نقول: تبدأ السياسة حين يتوقف العنف، ويبدأ العنف حين تتوقف السياسة. العنف هو تلك القوة العمياء التي لا ترى إلا ذاتها، وإن الذين يستخدمونه من أجل الحصول على حقوق ضائعة أو إصلاح أوضاع متدهورة، لا يعرفون معنى الإصلاح التدريجي ولا التغيير السلمي، ولا يعرفون شيئاً اسمه فقه الموازنات أو ترتيب الأولويات، إنهم يعرفون شيئاً واحداً هو كسر العظم وإشاعة الرعب بقطع النظر عن النتائج

التي تترتب على ذلك !

حين أشرنا إلى تعقد أسباب الغلو وتداخلها كنا نقصد أن الغلو قد ينتشر في بلد لأسباب سياسية، وفي بلد ثان لأسباب فكرية، وفي بلد ثالث لأسباب اجتماعية، ومن هنا فإن وجود الغلو في بلدٍ لا يعني وجود تقصير من علماء الشريعة فيه أو قصور في السياسة... بشكل مطرد، فقد وقعت أحداث عنف وإرهاب في دول يتمتع أهلها بالحرية والعدالة وقدر كبير من المعرفة والوعي، ولهذا فإن ظواهر الغلو والتطرف والإرهاب، تحتاج إلى دراسة خاصة في كل بلد على حدة، حين نريد التشخيص الدقيق، ونحن هنا نشير إلى ما هو مشترك وعام:

أ- معاداة الدين: نحن هنا لا نتحدث عن الغلو لدى كل الأمم، وإنما لدى المسلمين، وبالتالي فإن من الطبيعي إذا رأينا مواقف حادة من الدين من خلال مهاجمة رمزياته ورموزه، ومن خلال الاستهزاء بأحكام الشريعة وإبعادها عن الدساتير والقوانين- أن نرى من يحتج على ذلك، ونحن نرى أن السلوك السياسي والتشريعي في معظم الدول العربية لا ينضبط بآداب الإسلام ولا تعليماته، كما أننا نرى الساحات الإعلامية والثقافية مفتوحة في أحيان كثيرة أمام العلمانيين والليبراليين ليقولوا أكثر ما يريدون قوله، وهذا أدى إلى تسهيل مهمة القائلين بكفر الحكومات أو ردتها مستغلين بعض النصوص المتشابهة وأقوال بعض أهل العلم غير الناضجة، لكن أود أن أؤكد أن العقيدة بمفردها غير قادرة على إيجاد حركات احتجاج عنيفة ما لم تتوفر عوامل أخرى مثل الظلم والاضطهاد والفساد، وهذا في الأعم الأغلب، وإلا فإن الجهل بالدين والواقع يستطيع جر بعض الناس إلى ارتكاب فظائع لأتفه الأسباب .

ب - تهميش المرجعيات: لو نظرنا في بلدان الربيع العربي لوجدنا أن الحكومات

فيها اتبعت سياسات مؤداها تحطيم كل الرؤوس الكبيرة حتى لا يبقى لدى الناس أي شيء محترم، وحتى لا يبقى لديهم أي مرجعية موثوقة يؤوب الناس إلى فكرها وحكمتها، وعلى صعيد العلماء والدعاة استطاع بعض الحكومات قسمهم إلى قسمين: قسم محاصر ومطارد ومهمش لا يجد أمامه أي فرصة لنشر الاعتدال والوسطية، وقسم يلوذ بالصمت، أو يقول غير الحق والحقيقة، وهكذا فإن الشباب حُرموا من توجيه بعض أهل العلم، وأعرضوا عن سماع بعضهم الآخر بسبب عدم الثقة به، وكانت النتيجة أن يفرز الشباب المصابون بلوثة الغلو من بينهم من يفتيهم و يوجههم، وقد صدق فيهم فعلاً وصفه ﷺ لهم بأنهم سفهاء الأحلام أحداث الأسنان، وهكذا فإن الغلاة لا يعودون إلى أحد من أهل العلم والفقه والدرراية بالسياسة الشرعية، المشهود لهم بالرسوخ عند أهل الاختصاص! .

جـ – استخدام القوة الباطشة:

الذين سلكوا طريق الغلو وأفضى بهم إلى قتل الأبرياء والإسهام في هدم البنية التحتية يستحقون العقوبة المقررة شرعاً ونظاماً، لا شك في هذا، ولكن حدث في سجون بعض الدول تعذيبهم بطرق رهيبة هي فوق طاقة البشر، ليس أشدها مشي المعتقل حافياً على الزجاج، وهناك الاغتصاب الجماعي لبعض المعتقلات، وهناك الحرمان من النوم أياماً عديدة وهناك الكي بالنار، وهناك وهناك .. مما يندى له جبين الإنسانية حتى قال أحدهم: لو خيرت بين السجن سنةً لدى الطاغية فلان وبين السجن لدى إسرائيل لاخترت أن أُسجن في إسرائيل !

الأهوال التي ذاقها بعض المتطرفين جعلتهم يوقنون بأن ما لاقوة من عذاب لا يفعله مسلم بمسلم، ولهذا فإن كثيراً ممن يُفرج عنهم يخرجون من السجون والمعتقلات وقد حكموا بكفر من عذبهم ومن أمر بتعذيبهم بل إنهم يحكمون

بكفر المجتمع الذي مالأ أو سكت .. وقد أثبتت الأيام أن إهانة بني البشر أياً كان اتجاههم لا تُصلحهم، ولا تردعهم، وإنما تمنحهم الذريعة ليرتكبوا المزيد من الجرائم، وليوغلوا أكثر في الانحراف.

د – الحشر في الزاوية الضيقة:

كلما تقدم الناس في سلم الحضارة قوى شعورهم أكثر بحقوقهم، ونمت حاسَّة النقد لديهم أكثر وأكثر، وبما أن كثيراً من القرارات والأنشطة السياسية والإدارية يقوم على الاجتهاد وتقدير المصلحة، فإن من المتوقع دائماً أن يكون الصواب فيها نسبياً، وتكون موضعاً للنقد والجدل، ومن هنا فإن الناس يتشوفون إلى أن يتمكنوا من التعبير عن آرائهم بحرية، كما أنهم يشعرون بأن الفساد الإداري والمالي يعود بالضرر على المصلحة العامة وعلى مصالحهم الشخصية، ولهذا فإن حرمانهم من نقد ذلك والاحتجاج عليه يدفع بفئة منهم إلى الغلو والتطرف والتذمر، وقد يدفعهم إلى القيام بأعمال تخريبية، ولهذا فإن هناك علاقة وثيقة بين حرية التعبير والشعور بالعدالة والكرامة، وبين قوة الانتماء للبلاد والانصياع لأحكام القانون وسلوك الطريق السلمي في التغيير، وإن واقع الحال في كثير من البلدان شاهد على ذلك.

لا بد من الإشارة هنا إلى أن الفساد المالي والإداري حين يستشري ويتجاوز الحدود المألوفة، فإنه يولد نقمة خفية وعامة لدى الناس، وهذه النقمة تساعد على إيجاد حاضنة شعبية للغلو والإرهاب، وهذه الحاضنة تمد الغلاة بالرجال والمال، وتتستر عليهم، وتتعاطف مع بعض أعمالهم .

هـ – الغرب يحفز الإرهاب:

مازال الغرب يتعامل مع الكثير من الدول العربية والإسلامية بعقلية المستعمر

الطامع في خيراتها، ولهذا فإنه وعلى الرغم من كل الشعارات البراقة في الحرية والعدالة والديمقراطية يقف ضد كثير من الحركات التحررية والنهضوية في عالمنا الإسلامي على حين أنه بذل كل ما يستطيع لإنجاح الحركات التحررية في أوربا الشرقية، كما أنه بارك تحول دول أمريكا الجنوبية من الاستبداد والقمع إلى النظام الديمقراطي والليبرالي .

إن أمريكا دمرت كل مقدرات العراق وفككته، وأعادت تركيبه على أسس طائفية وعرقية، وسلمته لإيران وحلفائها على طبق من ذهب مما همَّش سُنَّة العراق، وجعلهم يُضطهدون من قبل بعض بني جلدتهم، وقد قدموا بذلك خدمة عظيمة لتنظيم الدولة الإسلامية، حين جعلوا كثيراً من السنة يظنون أن هذا التنظيم قادر على الدفاع عن وجودهم وممتلكاتهم، كما أن الدعم الغربي المتواصل لليهود في فلسطين خلال سبعين سنة جعل كثيراً من الشباب يتعاطفون مع القاعدة بوصفها الجهة القادرة على إهانة الغرب والانتقام منه... واليوم يجد الغرب ذريعة قوية للتدخل في شؤون المنطقة ومساعدة الطغاة الذين دمروا بلادهم وشردوا شعوبهم من خلال محاربة الإرهاب، أي أن الغرب يقوم بعمل مزدوج: إيجاد المسوغات الباعثة على وجود الغلو والتطرف الذي يدمر الاعتدال، ويمزق اللحمة الوطنية من جهة ثم استغلال الغلاة وحماقاتهم لمساعدة الطغاة على البقاء على ما هو واضح في العراق وسورية على سبيل المثال .

إن الوعي بشبكة الأسباب والعوامل التي أدت إلى انتشار الغلو والتطرف في العالم الإسلامي عامة والمنطقة العربية منه خاصة، يشكل المدخل للتعامل مع هذه الظاهرة الخطيرة، ولا بد لهذا الوعي من أن يكون عاماً وشاملاً إذا ما أردنا حرمان الغلاة من السند الشعبي لأفكارهم، وهذا يتطلب الكثير من العمل في العديد من الحقول، وهو ما سنعمل على توضيحه في الصفحات التالية بحول الله وطوله .

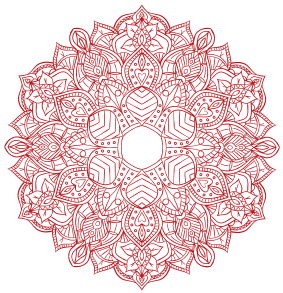

كيف نتعامل مع الغلو؟

تشكل ظاهرة (الغلو) وما يترتب عليها من تطرف وأعمال عنف وتخريب، واحدة من أخطر الظواهر التي ابتُلي بها المسلمون في العصر الحديث حيث إن المنظمات والمجموعات المتطرفة جرَّت الخراب على عدد من ديار المسلمين، وهي تظن أنها تنصر الأمة وتسعى في طريق عزتها! .إن من طبيعة الإسلام أنه يبلور وعي المسلمين بذاتهم وبمبادئهم من خلال طرحه الحلول للمشكلات التي يواجهونها، والمهم دائماً هو الاهتداء بهديه في المنشط والمكره لأن في ذلك العصمة من سيطرة الغرائز والمنهجيات الخاطئة في تجاوز الأزمات والصعوبات التي نمر بها .

إن الإسلام في حركته الإصلاحية الواسعة يعتمد على عدد من المبادئ والقيم والإجراءات النابعة من الحكمة البالغة للخالق العظيم الخبير بما يُصلح عباده، وبما يَصلح لهم، ولعل من أهم تلك المبادئ أنه يعوِّل في حل المشكلات على أربعة أمور أساسية، هي: جاذبية مبادئه وملاءمتها للفطرة، وعلى وعي الناس وضمائرهم ثم على العقوبات الرادعة عند الحاجة .

إن الغلو في أصل نشأته هو ضلال في الفكر يتبعه انحراف في المشاعر، ويترتب

على هذا وذاك سلوكيات ومواقف وعلاقات خاطئة، وهذا يعني أن العلاج سينصبُّ في الأساس على إصلاح الفكر الذي يحمله الغلاة، وحين يرتكب أحدهم جريمة موصوفة فإن في القوانين والعقوبات المقررة والمقدرة ما يساعد على ردع المجرمين، مع التأكيد على أن العقوبات لا تنشئ مجتمعاً ولا جماعة، ولكنها تحميها ممن فاتتهم التنشئة الاجتماعية القويمة، ومن أولئك الذين غسل الإرهابيون أدمغتهم حتى ضلوا عن سواء السبيل .

إن في إمكاننا أن نقول الكثير الكثير عن معالجة الغلو والتعامل معه، لكنني سأسعى هنا إلى التركيز على الأفكار والمبادئ الأكثر أهمية عبر المفردات الآتية:

١- التحذير من خطورة الغلو: كل أتباع الديانات والمذاهب والنظريات الشمولية، وكل أتباع الجماعات والأحزاب وكل أبناء القبائل والمجموعات العرقية، وعموماً كل أصحاب الانتماءات الراسخة، أقول كل هؤلاء معرَّضون للإصابة بلوثة الغلو بسبب النزعة العميقة لدى البشر للميل إلى طرف من الأطراف أو بسبب سوء الفهم أو الترويج الإعلامي ... ومن هنا فإن توضيح خطورة الغلو وأضراره من القضايا التي تحتاج إلى دوام التوعية بها وإلى الاستمرار في معالجتها من أجل محاصرة الغلاة ومن أجل تحصين الأجيال الجديدة. لاشك أنني ألمحت خلال الصفحات الماضية إلى العديد من مخاطر الغلو، لكن أريد هنا حصرها وتحديدها على نحو جلي:

أ- نستطيع أن نقول في البداية: إن مشكلتنا الأولى مع الغلاة ليست مشكلة مصلحة، وإنما مشكلة عقيدة وانحراف عن طريق أهل السنة والجماعة، ومن هنا كان التشديد في النصوص على الغلو وعلى الخوارج أعظم من التشديد على العصاة مع أن ضرر بعض المعاصي على المجتمع أكبر بكثير من مواقف بعض

الغلاة، لكن المعصية نقطة سوداء في كتاب من يسير على الطريق الصحيح، أما الغلو فهو خروج عن ذلك الطريق بالجملة، ولهذا فإن صاحب المعصية يتوب عنها بأيسر السبل، أما أصحاب البدع والانحرافات العقدية، فإن رجوعهم عن معتقداتهم في غاية الصعوبة، بالإضافة إلى أنهم يدعون إلى ضلالاتهم، وأصحاب المعاصي يستترون عن أعين الناس في الغالب. إن الغلو يشوه ما في دين الإسلام من سماحة ويسر وتفهم ومراعاة لطبائع البشر وحاجاتهم وظروفهم، كما أن الغلو يعطي الانطباع بأن تكاليف الإسلام هي فوق ما يطيقه البشر، وذلك لأن الغلاة في الغالب يكلفون أنفسهم بما لم يكلفهم به الله تعالى، أو أنهم يحاسبون غيرهم عما رخَّص الله تعالى به، وفي كلتا الحالتين يكون هناك صد عن سبيل الله تعالى مع أن المسلم مأمور بالترغيب في الانتساب إلى الإسلام وبيان ما فيه من يسر وسماحة، وفي هذا السياق نجد أن نبينا ﷺ بادر بالتحذير والإنكار منذ الومضات الأولى للغلو في العديد من المواقف والحالات، وفي هذا الإطار جاء قوله: (هلك المتنطعون) قالها ثلاثاً .[1] والمتنطع هو المتعمق الغالي المجاوز للحد في أقواله أو أفعاله، وحين عزم بعض أصحابه على صيام الدهر وقيام الليل والعزوبية والإعراض عن الزواج أنكر ذلك، بقوله: ((أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني))[2] وقال: ((إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلوُ في الدين))[3]

ب – من الأضرار الملموسة للغلو أنه يقدم نوعاً من التحفيز الخفي لغلو مقابل

---

١ – رواه مسلم

٢ – رواه البخاري .

٣– رواه أبو داود وغيره .

وهو الإرجاء والتساهل في الامتثال لأوامر الشرع. إذا كان الغلو كثيراً ما يترجم نزوعاً إلى الالتزام بأمور لم تأمر بها الشريعة، فإن الإرجاء هو نوع من الانعتاق والتحلل من أمور حتمتها الشريعة، وهكذا فالضد أقرب خطوراً في البال، ولا نكون مجافين للحقيقة إذا قلنا: إن مذهب الخوارج والقائم على الغلو قد أسهم في ولادة الإرجاء، حيث إن الناس حين يريدون الاحتجاج على ظاهرة سيئة جداً يظنون أن الاحتجاج المتطرف الذي يقف بأصحابه على الضفة الأخرى هو الذي يحجِّم الظاهرة التي يحتجون عليها، تماماً كما حصل في العصر العباسي حين بالغ بعض الأثرياء في مظاهر اللهو والزينة والمتعة والإقبال على الدنيا...قام من يدعو إلى الزهد والتبتل والإعراض عما أباحه الله تعالى من الطيبات، وقد صدق من قال: إن الغلو والإرجاء، وجهان لعملة واحدة، فالمتقدم على الصف مثل المتأخر عنه، كلاهما يسهم في اعوجاجه ! .

جـ - الغلو المؤسِّس لمذهب الخوارج، عامل قوي في تفريق كلمة المسلمين وخضد شوكتهم وإطماع العدو فيهم .. وإن التمسك بسنة النبي ﷺ يعمل في الاتجاه المضاد للغلو إذ يوفر أرضية متينة لقيام درجة عالية من الوحدة الفكرية والشعورية بين المسلمين، ومن هنا كثرت النصوص التي تحض على اتباع النبي ﷺ والاهتداء بهديه، كما كثرت النصوص المحذرة من البدع التي تكسر الانسجام الفكري والشعوري الذي يوفره الالتزام بالسنة، ومن أجل هذا ذكر علماء المسلمين أن مذهب الخوارج مغاير لمذهب أهل السنة والجماعة، لأنه لا يجمع المسلمين، بل يفرق كلمتهم، والتاريخ يشهد على هذا، وكذلك الواقع مما نراه كل يوم في مواقف الخوارج وسلوكياتهم، ونحن نعرف أن الحروب الداخلية التي فرضها الخوارج على الحكومات والجيوش الإسلامية، قد أدت إلى خلخلة المجتمعات الإسلامية، كما أنها عرقلت حركة الفتوح الإسلامية، حيث استهلكت

طاقات الأمة في الاقتتال الداخلي.

د- يُعدُّ تكفير المسلم واستباحة دمه وماله واحداً من أخطر ما اقترفه الخوارج في حق هذه الأمة، ونحن نعرف أن من أعظم محاسن هذا الدين أن الدخول فيه سهل ميسر، ويمكن أن يقوم به أي إنسان من غير أي واسطة، والقضية وما فيها هي أن ينطق الشخص الذي يرغب في الدخول في الإسلام بالشهادتين موقناً ومؤمناً بمضمون ما يقول، وبهذا يصبح واحداً من المسلمين، له مالهم، وعليه ما عليهم، إنه يصبح معصوم الدم والمال ولو قصَّر في أداء الواجبات، ووقع في بعض المعاصي ما لم يرتكب مكفراً من المكفرات التي نصَّ عليها أهل العلم. إن جعل كلمة الشهادة هي الإطار الذي يجمع كل المسلمين، يدل دلالة واضحة على حكمة الله تعالى في جمع كلمة المسلمين على شيء يقيني واضح جداً ومختصر جداً، ويتلو ذلك الوعيد الشديد لمن يتجاهل ذلك الإطار حتى في أكثر الظروف حرجاً، وفي حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه عبرة واضحة لمن يريد أن يعتبر حيث قال: ((بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة، فصبَّحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم فلما غشيناه، قال: لا إله إلا الله، فكفَّ الأنصاري، فطعنته برمحي، حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ رسولَ الله ﷺ (أي ما صنع من قتل الرجل) فقال لي: يا أسامة أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟! قلت يا رسول الله: إنما كان متعوذاً (أي مستعصماً بها من القتل وليس إيماناً بالله) قال: أفلا شققت على قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ)[1] إن النبي ﷺ لم يقبل من أسامة الحكم على نية الرجل، وطالبه بأن يأخذ بالظاهر حتى مع توفر القرائن على أن الرجل نطق بالشهادتين حتى ينجو من القتل، لأن الحكم على

١- رواه البخاري ومسلم .

النيات مزلق خطير جداً، وبسببه حصلت وتحصل فظائع في كل مكان من الأرض!

قد صح عنه ﷺ أنه قال: (لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس والثيب الزاني والتارك لدينه المفارق للجماعة)[1] فإذا وقع مسلم في شيء من هذا فإن عقوبته متروكة لولي الأمر وللقضاء، وليس لأفراد الرعية لما يترتب على ذلك من الفوضى والثأر والظلم، حيث إن من السهل أن يقول أي شخص عن أي شخص: إنه زنى أو قتل أوارتد..

إن لدينا الكثير من النصوص التي تحذر المسلم من إراقة دم المسلم حرصاً من الشارع الحكيم على صون الدم المعصوم، لأن الإنسان هو بنيان الله تعالى، وليس لأحد أن يهدم ذلك البنيان إلا فيما حدده الشرع بدقة متناهية، وإن على عموم المثقفين المسلمين أن يزرعوا في الثقافة العامة تعظيم حرمة الدماء وخطورة استسهال تكفير المسلم أو تخوينه أو رميه بالعمالة أو وصفه بالعلمانية، فهذا كله يشكل أساساً للهرج والمرج الذي نراه في العديد من بلاد المسلمين اليوم

٢- الانتصار في معركة المفاهيم:

ذكرت من قبل أن أساس الغلو يتمثل في انحراف بعض المفاهيم المتعلقة بالواقع أوبالشريعة أوبالمنهج الإصلاحي أوبهذه جميعاً، ويتبع انحرافَ المفاهيم انحرافُ المشاعر والعواطف، وهذه من جهتها تؤسس للعلاقات والسلوكيات العنيفة والمتطرفة، ولهذا فإن تصحيح المفاهيم لدى الغلاة يشكِّل أولوية في علاج ظاهرة الغلو، وهذه مقاربة موجزة في هذا الشأن:

١- رواه البخاري ومسلم .

أ- تعرية التفكير الشمولي:

لا ريب لدينا في أن الإسلام دين يواكب حياة الإنسان من ولادته حتى مماته، فهو دين للحياة والأحياء، ولا ريب في صلاحية هذا الدين لتوجيه وإصلاح حياة الناس في كل زمان ومكان، وهذا احتراز لا بد منه بين يدي حديثنا عن التفكير الشمولي. نقصد بالتفكير الشمولي هنا ذلك النمط من التفكير القائم على الحتميات التاريخية حيث الاعتقاد بأن التاريخ يمضي في اتجاه واحد، وتحكمه قوانين صارمة، وهكذا فكل الأقوال والحِكم والتجارب والخبرات التاريخية صالحة للإرشاد والتطبيق في أي مكان وأي زمان. الغلاة يعتقدون أن المعارك التي خاضها أسلافنا كانت ناجحة بسبب حكمة القادة وإخلاص الجند والتضحية الفريدة لصفوة الجيش، والآن إذا توفر مثل هذا وبالقدر الكافي، فإن النصر مضمون ومؤكَّد، ومع أن ما ذُكر من عناصر النصر صحيح، وتظل له قيمة مهمة، لكننا اليوم في زمان مختلف اختلافاً تاماً عما كان سائداً قبل خمسمئة سنة، فالحرب الآن حرب أدوات ومبتكرات وحرب أموال وإمكانات، وبالتالي فإن جيوشاً كثيرة تحقق أهدافها مع أنها لا تملك قادة فاتحين مثل خالد وصلاح الدين، ولا تملك ولا شخصاً ممن يتمنطقون بالحزام الناسف، وذلك لأن طبيعة الحرب اليوم تقوم على المعرفة والتقنية المتقدمة، لا على البطولة والشجاعة والتضحية .

إن القياس مع الفاروق هو الفخ الكبير الذي يقع فيه معظم الغلاة !

التفكير الشمولي يختصر أسباب الصراع وألوانه وعوامله إلى سبب أو سببين، وهذا التفسيرله جاذبية قوية لدى أصحاب الكسل الذهني، وهذه السمة وتلك هي الغالبة على عقلية الجماهير العريضة، وهكذا فالنازية بفكرها الشمولي قررت أن كل التاريخ هو صراع عرقي أوإثني، والاشتراكية بفكرها الشمولي انتهت إلى أن

التاريخ هو تاريخ الصراع بين الطبقات الاجتماعية، والمتطرقون لدينا يعتقدون أن التاريخ عبارة عن صراع بين عقائد متباينة، وهذا كله غير صحيح، فالروح العلمانية هي المسيطرة على العالم اليوم؛ وكثير من الحروب يقوم من أجل الحصول على مواد خام رخيصة وتأمين أسواق مفتوحة أوبسبب الخلاف على رسم الحدود بين الدول.

أصحاب الفكر الشمولي يريدون تطبيق أفكارهم أينما اتجهوا بغض النظر عن الواقع، وفي هذا مصادمة ظاهرة لثوابت مهمة في فقه الإصلاح والتغيير وفي ميادين التدافع الحضاري، ومن تلك الثوابت الموازنةُ بين المصالح والمفاسد والعملُ على تحقيق خير الخيرين ودفع شر الشرين، كما أن لدينا ما يسمى بفقه الضرورة وفقه الاستضعاف إلى جانب فقه الاستطاعة، وفقه التمكين، وهذا كله خارج اهتمامات الغلاة، ولهذا فإنهم أساتذة في تخريب بلاد المسلمين واستدعاء الأعداء إليها .

ب- بيان سماحة الشريعة:

إن بيان سماحة الشريعة ويسرها من أهم ما يمكن الاعتماد عليه في مقاومة الغلو؛ ومن الواضح أن الغلو يمضي في اتجاه مضاد لروح الشريعة وطبيعة تعاليمها وأحكامها، إذ إن الغلاة يكلفون أنفسهم ويفرضون على غيرهم ما هو فوق الوسع والطاقة، وما هو في دائرة الحرج الذي نفاه الله تعالى عن دينه إذ قال: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[1] بل أراد الله بنا اليسر، ورفع عنا العنت والمشقة في التكاليف حيث قال سبحانه: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[2] وقال: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[3]

١- سورة الحج ٧٨ .
٢- سورة البقرة: ١٨٥
٣- سورة الأعراف: ١٥٧

لا أريد هنا أن أتحدث عن ملامح التكليف في نطاق الاستطاعة وكل ملامح السماحة والتيسير في شريعتنا السمحة، فهذا حديث يطول، لكنني أود أن أشير إلى شيء منهجي أخلَّ به الغلاة، فكان منهم الضلال والجفاء، وهذا الشيء هو صفة التعددية وفسح المجال للاجتهاد، وبالتالي للاختلاف في كثير من الأحكام بغية ترك مجال للاختيار أمام المسلم بين أقوال الأئمة والمفتين، بما يخفف عنه من ضغوط إلزام التكليف، لطفاً من الله تعالى بعباده وتيسيراً عليهم، على حين أن الغلاة لا يعودون إلى أقوال الفقهاء، ولا يهتمون باختلافهم، وإنما يعودون إلى النصوص ويأخذون منها ما يريدون، ويوظفونه في السياق الذي يريدونه، وإذا رجعوا إلى فقيه، فإنهم يعودون في كثير من الأحيان إلى المجاهيل من طلاب العلم، ويقلدونهم تقليداً مغلقاً وضيقاً، وعلى كل حال فإن من يثق بهم الغلاة من طلاب العلم دائماً قليلون لأنهم أصحاب هوى، ولا يأخذون إلا عمن يوافق أهواءهم، وما يلائم ما هم عليه من الشطط والتطرف . ولعلي أشير في هذا السياق إلى (التعددية الفقهية) حيث إن الناظر في نصوص الكتاب والسنة يجد أن معظمها ظني الدلالة على المراد، ولو شاء الله تعالى لجعلها محكمة، ولكن لطفه بعباده وحكمته البالغة اقتضت ذلك، لأن النص حين يكون ظني الدلالة يتيح للفقهاء والمجتهدين النظر وبذل الوسع في تعيين المراد منه، ومن الطبيعي أن يعقب الاجتهاد اختلاف وتعدد في الآراء، مما يجعل المسلم مخيراً في الأخذ بقول أي واحد من المجتهدين، وفي هذا رفق بالناس وتوسعة عليهم، وقد حدث شيء من هذا في زمانه ﷺ، فقد نادى رسول الله ﷺ في أصحابه يوم انصرف من غزوة الأحزاب أن لا يُصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة، فتخوف الناس فوات الوقت، فصلوا دون بني قريظة، وقال آخرون: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله ﷺ، وإن فاتنا الوقت، فلم يعنف أياً من الفريقين[1] .

١ – رواه الشيخان .

إن بعض الصحابة رضوان الله عليهم قد أخذوا بظاهر النص، فلم يصلوا إلا في بني قريظة، وبعضهم صلى في الطريق لأنهم فهموا من حثه ﷺ على الصلاة في بني قريظة طلب الإسراع في المسير، وهم قد أسرعوا، وحققوا طلبه، ولكن الأمر بالصلاة على وقتها جعلهم يجمعون بين ضرورة أداة الصلاة في وقتها وبين تحقيق مراد رسول الله ﷺ، وكانت النتيجة أنه ﷺ لم يؤاخذ أياً من الفريقين لأن طلبه ظني الدلالة، ويحتمل الخلاف .

الأئمة الفقهاء المرضيون لدى الأمة، لا يتعَّمد أي منهم مخالفة النبي ﷺ في دقيق أو جليل، فهم جميعاً متفقون على وجوب الاتباع، ولكن الفقيه إذا ترك الأخذ بشيء ورد عن النبي ﷺ، فذلك لاعتقاده أن النبي لم يقله، أو لم يصح عنه، أولاعتقاده أن المراد الذي فهمه الفقهاء من ذلك النص ليس هو مراد النبي ﷺ، أو لأن النص معارَض بما هو أقوى منه، أو لأنه منسوخ ...

ومن هنا أكد أهل العلم على ضرورة اطلاع طالب العلم على اختلاف الفقهاء في المسألة التي ينظر فيها، ومن أقوالهم في هذا: ((من لم يعرف اختلاف العلماء، فليس بعالم، ومن لم يعرف اختلاف الفقهاء لم يشم أنفه رائحة الفقه))[1]

إن كثيراً من الغلاة سيراجعون أنفسهم في كثير من المسائل والمواقف المتشنجة لو ألزموا أنفسهم بمطالعة أقوال أهل العلم فيها، ليدركوا أن ما يذهبون إليه لا يعدو أن يكون في أحسن حال عبارة عن قول من أقوال ورأي من آراء، وليدركوا أن اختلاف علماء الأمة في شيء، هو رحمة من الله تعالى بعباده.

جـ - الثقافة السننية:

أكبر مشكلة يعاني منها الغلاة والمتطرفون هي الجهل بسنن الله تعالى في الخلق،

١ - انظر رفع الملام عن الأئمة الأعلام ص ٨ وما بعدها .

إذ إن البارئ ﷻ وضع لمسيرة الأمم والحضارات قوانين تحكمها، وتلك القوانين ماضية وغلابة، وهي شبيهة بالقوانين والسنن التي وضعها لمسيرة الشمس والقمر والكواكب السيارة، وفي هذا السياق يقول سبحانه: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[1]

وقال: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[2]

إن السنن الربانية تحدد لنا الاتجاهات العامة وهي مفيدة جداً عند شح المعلومات، وأيضاً هي مهمة عند وجود المعلومات لأن المرء قد يفقد الرؤية الاستراتيجية من غير فهم السنن وطبائع الأشياء، وإن وفرة المعلومات توجد ارتباكاً كبيراً في الذهن .

إن جهل الغلاة بالسنن الربانية أوجد لديهم مشكلة أخرى هي الاغتراب الشديد عن زماننا، إذ لكل عصر من العصور روحه الخاصة، والجهل بتلك الروح أو تجاهلها يؤدي إلى كوارث قد تصل إلى درجة أن يجد الغلاة أنفسهم وكأنهم في حرب شاملة ومفتوحة مع العالم، وهذا هو الواقع اليوم مع الأسف الشديد!

نماذج وأمثلة:

١ - النظر إلى العواقب:

لعل هذا أعظم معنى نتعلمه من السنن الربانية، وذلك لأنها تجسِّر العلاقة بين الأزمنة، فالمسلم يبتعد عن القيام بعمل من الأعمال بسبب المخاطر التي تترتب عليه ولو بعد حين، والسنة النبوية زاخرة بهذا، فنبينا ﷺ أقام الحد على بعض أصحابه، وامتنع عن قتل المنافقين مع معرفته بهم وعلمه باستحقاقهم القتل،

١- سورة فاطر: ٤٣
٢- سورة الفتح: ٢٣

وعلَّل ذلك بقوله: ((معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي))[1] وامتنع ﷺ عن إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم مع أنه يرغب في ذلك لكنه خشي أن يُحدث ذلك فتنة بين الناس، وقال لعائشة: ((لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس إبراهيم))[2]

الغلاة والخوارج لا يعيرون أي اهتمام للسنن الربانية ولفقه المآلات خاصة، فحادثة (٩/١١) وتفجير البرجين محاطة بالشكوك من كل جوانبها، ومع هذا تبنتها القاعدة دون أي تفكير في عواقبها، والتي كانت بمثابة كارثة على العالم الإسلامي، حيث تم في سياق الرد عليها إسقاط نظامين وتخريب بلدين مع محاصرة شديدة للدعوة والعمل الخيري وإذا نظرت في تصرفات الغلاة وتصريحاتهم، فإنك لا تشك في أنها مجافية للحكمة والمصلحة الآجلة .

٢ – تجاهل فقه التدرج:

التدرج في الشريعة الغراء معروف مشهور، وهو سائغ في الإصلاح في كل زمان ومكان، وأدلته الشرعية كثيرة، وهو يقوم على مبدأ المراعاة للظروف العامة وأحوال الناس ومدى استعدادهم للتغيير، ورحم الله الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز، فقد نطق بالحكمة في هذا الشأن، فقد روي أن ابنه عبد الملك قال له: مالك لا تُنفذ الأمور؟ فو الله ما أبالي لو غلت بي وبك القدور)) قال عمر: ((لا تعجل يا بني فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين، ثم حرمها في الثالثة، وإني أخشى أن أدفع الناس إلى الحق جملة، فيدعوه جملة، ولكن أما ترضى أن لا يمر على أبيك يوم إلا وهو يميت فيه بدعة، ويحيي فيه سنة)) ؟

---

١ – رواه أحمد في المسند.
٢ – متفق عليه.

إن إصلاح المجتمع يعني أول ما يعنيه تغيير ثقافته وأخلاقه وسلوكه، وهذا عمل استراتيجي بعيد المدى، لكنه هو أساس كل تغيير، وحين نغير لله تعالى ما نستطيعه، فإنه يغيِّر لنا ما لا نستطيعه، وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]. إن الغلاة يبدأون بتغيير المظاهر في الشارع بالقهر والقوة، فيتحول كثير من الناس إلى منافقين يعملون ما يريده الغلاة على الملأ، وما تمليه عليه رغباتهم وعاداتهم في السرِّ، وحين تضعف شوكة الغلاة لأي سبب من الأسباب، يتحول المنافقون إلى متمردين على قيم الدين القويم ! .

٣ – التفريق بين أدوات البناء وأدوات الهدم:

من الثابت لدى كل العقلاء أن متطلبات هدم دولة أو نظام سياسي تختلف عن تشييد نظام بديل، نعم من الممكن الإطاحة بحكومة هشة في ظروف مواتية، وهذا يتم باستخدام القوة والطوفان الشعبي، وقد حدث هذا في العديد من البلدان، لكن من المسلَّم به أيضاً أن بناء دولة أو نظام سياسي جديد، يحتاج إلى نظم وخطط وعقول وخبرات وآليات وأموال مغايرة تماماً لما تحتاجه عمليات الهدم، لكن الغلاة والخوارج ومن دار في فلكهم، لا يفقهون هذا، ومن ثم فإنهم لم يفلحوا في العصر الحديث بإقامة أي نظام حكم ينجح ويستمر ولو عشر سنوات، وما ذلك إلا لأنهم لا يملكون أي أهلية لذلك.

٤ – القوة العسكرية بنت القوة الاقتصادية:

يستسهل الغلاة إطلاق المعارك والمناوشات المسلحة، ظانين أن المطلوب هو الشجاعة والقدرة على التضحية وما تيسر من السلاح، وما دروا أن من السهل على المرء أن يفتتح معركة، لكن الاستمرار في المعارك شيء آخر. من السهل على

---

١ – سورة الرعد: ١١

الدول أن ترصد مئات الملايين بل المليارات من أجل الحفاظ على أمن شعوبها، والأمر ليس كذلك بالنسبة للغلاة، مما يضطرهم إلى السرقة والسلب والنهب والاستحواذ على أموال الناس بحجج واهية، ومع هذا فإن تكاليف المعارك اليوم هائلة، والنهاية هي الهزيمة المنكرة، والتاريخ والواقع شاهدان على هذا!

٥ - الحكم الإمبراطوري:

أشواق المسلمين إلى العيش في ظل دولة واحدة قوية جداً، لكن العقبات التي تقف في وجه ذلك كثيرة وكبيرة .

لو رجعنا إلى ما قبل عشرة قرون، فربما جاز لنا أن نشبِّه الدولة آنذاك بقرية مفتوحة على الصحراء، فلسكانها أن يمدوا عمرانها إلى العمق دون أن يعترض عليهم أحد، أما الدولة اليوم فإنها أشبه بشقة في برج، فلا يستطيع أصحابها أن يوسعوها في أي اتجاه كان. نعم انتهى زمان الإمبراطوريات، وجاء زمان الدولة القطرية والأحلاف والمجالس التعاونية، وحين حاولت أمريكا في القرن الماضي التصرف وكأنها تؤسس إمبراطورية هزمت وانكافأت على نفسها على نحو ما حصل لها في لبنان والصومال والعراق. الغلاة يعيشون خارج العصر، ويظنون أنهم من خلال أسلحتهم الفردية يستطيعون إعادة رسم حدود الدول، ولهذا فإن (داعش) تتحدث عن ولايات لها في عدد من الدول من باب زخرفة القول وخداع السُّذج، وسيدرك الناس في وقت قريب أن ما يسمى دولة الخلافة عبارة عن كيان مختلق قصير العمر بل أشبه بفقاعة، وما ذلك إلا لأن (الخليفة) وحاشيته يتحدثون عن أوهام وأحلام بعيدة المنال، لكن لا يهم، فداعش لا تريد خديعة كل الناس كلَّ الوقت، إذ يكفيها أن تخدع بعض الناس بعض الوقت !

٣ – بيئة للوسطية:

حين يولد الطفل يكون في معظم شأنه وجوانب وجوده عبارة عن صفحة شبه بيضاء، نستطيع أن نكتب عليها ما نشاء، ورويداً رويداً، ومن خلال العيش في مجتمع تبدأ الاتجاهات والمشاعر والآراء الخاصة لديه بالتشكل .. ولا يعني هذا أن طبائع الأطفال واحدة، فهناك في الحقيقة استعدادات عقلية ونفسية قد ترجِّح مع الأيام اعتناق الأفكار المتطرفة أوالاتجاه نحو السلوك العنيف، نعم هذا موجود، لكن المؤثر الأساسي في هذا هو (البيئة) التي ينشأ فيها الطفل، ونعني بالبيئة الأسرة أولاً ثم المدرسة ثم المجتمع على نحو عام.

الاتجاه نحو التطرف ينشأ إذن في الغالب من استعداد نفسي، ثم من تربية وإيحاءات اجتماعية معينة، ثم من المستخلصات الفكرية التي يصنعها كل إنسان لنفسه من رؤيته لنفسه ولدوره في الحياة، ومن رؤيته للعالم والمجتمع الذي يعيش فيه ... إن هذا كله يعني أن الإنسان الغالي والمتطرف يتكون بالتدرج وبحسب المعرفة والانطباعات والظروف التي يعيش فيها، ويمر بها.

تأثير البيئة في نفوسنا وعقولنا هائل، ولو أنني قلت: إن ٦٠٪ على الأقل من أسباب نجاحنا وسعادتنا و٦٠٪ على الأقل من أسباب إخفاقنا وشقائنا، لو قلت ذلك ما كنت مبالغاً، ومن هنا يمكننا القول: إن إيجاد بيئة تدعم الفكر الوسطي، والروح المعتدلة، وتحتضن الإنسان السويّ، من أهم ما ينبغي العمل عليه في طريقنا إلى مكافحة فيروس الغلو وتحجيم العنف، لكن المشكل الذي يواجهنا هنا هو أن أصعب شيء في الإصلاح هو بناء البيئات، وذلك لأنه عمل مركب واستراتيجي، ويحتاج إلى الكثير من الجهد والوقت، وما هذا إلا لأن البيئة التي نحصل عليها ما هي إلا مرآة لنتائج جهودنا في التقدم والتحضر، لكن كما أن بناء

البيئات صعب فإنه عظيم التأثير وذو مفعول مديد ومديد جداً.

خلاصة القول في هذا: أن العنف ليس سلوكاً مَرَضياً فردياً لشخص محدد، وإنما هو فعل ثقافي مكتسب من البيئة، وعلى هذا الأساس ينبغي التعامل معه .

ملامح بيئة الوسطية:

١ – الإيمان بحق الاختلاف:

قرر القرآن الكريم أن الاختلاف والتباين بين الناس هو سنة من سننه سبحانه في الخلق، فقال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[1] أي للاختلاف والرحمة .

وقد امتن الخالق سبحانه علينا بتنوع نعمه واختلاف بعضها عن بعض فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾[2]

إن اختلاف تركيبنا العقلي والنفسي واختلاف أشكالنا ومواهبنا وأهوائنا وظروفنا وطموحاتنا، إن اختلاف كل ذلك سُينتج في النهاية الكثير من الاختلاف في آرائنا ومعتقداتنا وتوجهاتنا، وعلينا أن نضيف إلى هذا كلَّ ما تعانيه النظم اللغوية من قصور ذاتي على مستوى التعبير والشرح وعلى مستوى الفهم والتفسير والتأويل، ولهذا فإن سوء الفهم لما نقول، ويقال شيء مألوف للغاية. ومن الواضح جداً أن عدم مراعاة الاختلاف والتنوع سيؤدي حتماً إلى الظلم،

١ – سورة هود: ١١٨، ١١٩.
٢ – سورة الأنعام: ١٤١ .

لأنه سيعني المساواة، تماماً كما لو أن الإنسان أعطى لابنه الذي في الجامعة مصروفاً شهرياً مثل الذي يمنحه لابنه الذي يدرس في المرحلة الابتدائية !

حين نتنكر للاختلاف فهذا يعني اللجوء إلى القسر والإكراه والعمل على إلغاء الخصائص الشخصية والفروق الفردية بيننا، وهذا سيؤدي قطعاً إلى الكثير من الصراع. الأسرة مطالبة أولاً بأن تتعامل مع تنوع شخصيات أبنائها بأريحية، وأن تعمل على تلبية طلبات الجميع على قدر الإمكان، وعلينا في المدارس وأماكن العمل والمساجد والأسواق مراعاة التنوع أيضاً، ومن هنا نرى كيف أن الدول المتقدمة والنامية فتحت فصولاً دراسية بل مدارس خاصة بالموهوبين وذوي الاحتياجات الخاصة، كما أننا نرى مواقف سيارات خاصة بالمعوقين ...

إن من سنن الله تعالى في خلقه أننا كلما اتجهنا نحو الأصول والكليات والمسارات الكبرى صار الاختلاف نادراً، وكلما اتجهنا نحو الفروع والجزئيات والمسائل الصغيرة صار الاتفاق نادراً، وفي ضوء هذه القاعدة فإننا نلمس أن ما هو مناط للاختلاف وتعدد وجهات النظر أكثر بعشرات المرات مما هو موضع اتفاق وإجماع، وعلينا أن ندرك شيئاً آخر، هو أننا في عصر تتسع فيه الحرية الشخصية وحرية التعبير، مما يعني أن ما يعده الجيل القديم في حيز المتفق عليه والمسكوت عنه، لم يعد كذلك في نظر الجيل الجديد، وبناء على هذا فإن علينا جميعاً وفي كل المجالات والصعد أن نتعود سماع ما لا يعجبنا، وأن نتعود تفهم وجهات نظر بعضنا، وأن لا نُقحم سوء الظن في تفسير اختلافاتنا، لأننا إذا لم نفعل ذلك، فإننا نكون قد وفَّرنا بيئة للعنف والغلو والتفكك الاجتماعي، ولو تأملنا في تاريخ كثيرين ممن جنحوا إلى العنف لوجدنا أنهم عاشوا في أسر أوبيئات ضاغطة، أو أنهم لم يجدوا من يحاورهم، ويستمع إليهم، ويصبر عليهم، ويهتم بهم .

٢- إحياء البعد الإنساني في خطابنا:

مازالت أمتنا تعاني من ألوان من التخلف المعنوي والفكري والأخلاقي والعمراني، ولهذا فإن من الطبيعي في حالٍ كهذه أن تضمُر النزعة الإنسانية في الكثير من مفردات خطابنا، فما يريده الإسلام من المسلمين من رقي في الكلام على مستوى المضمون وعلى مستوى الشكل، يحتاج إلى درجة من التحضر لم يبلغها كثيرون منا، وهذا في حد ذاته يؤسس للعنف والتطرف. اللغة تصنع الأفكار، وتصنع المشاعر، وإن الخطاب الذي يفتقر إلى اللمسة الأخلاقية وإلى التفاؤل ومراعاة الآخرين، يولد مشاعر التطرف لدى الناشئة من حيث لا ندري، ولا نشعر .

نحن حين نتحدث عن خطاب مفعم باللطف والرقة والمشاعر النبيلة نريد وقبل كل شيء بناء درجة من التهذيب والسمو النفسي الذي يدفع بصاحبه إلى البعد عن إيذاء الآخرين وتخوينهم وتسفيههم، لأن ما لديه من رفعة نفسية وروحية تأبي عليه ذلك، أي أننا نريد إيجاد صِمام أمان يباعد بين شبابنا وبين الإقدام على العنف والتورط في تكفير الآخرين وقتلهم .

ما المقصود بالبعد الإنساني ؟

١- إن الخطاب الذي نستخدمه في حياتنا العامة إنما هو عبارة عن استراتيجية للتلفظ أو التحدث، تتجلى فيها مقاصدنا وعاداتنا ورغباتنا في الإرشاد والتوجيه، كما تتجلى مصالحنا ومنافعنا، مما يعني أن تطوير الخطاب ليس بالأمر السهل، بل إنه يكاد يكون صدى أو عنواناً لتطور حياتنا العامة، ولهذا فإن الأمر يحتاج إلى الكثير من الوقت والجهد والصبر .

٢- إن المستخلصات التي يحصل عليها وعينا العام من الخطاب التنموي

السائد اليوم، هي مستخلصات تمجِّد القوة والقدرة على المنافسة، لأنه خطاب يصوِّر الحياة على أنها صراع من أجل البقاء لا يفوز فيه الأفضل أخلاقاً، وإنما الأكثر امتلاكاً لأسباب الغلبة من التمكن والقوة والدهاء والخديعة والاستغلال.. وإن التشبع بهذه المعاني لا يعني سوى نبذ معاني الحب والرحمة والشفقة وتسويغ معاني العنف والكراهية والفوز الساحق، وهذا كله يعني أن خطابنا التنموي والإصلاحي العام يحتاج إلى إصلاح جذري حتى يضيق الشريان الذي ينقل العنف المستبطَن في الحضارة المادية التي يتظلل العالم بظلالها اليوم .

ثمة شيء علينا الاعتراف به، هو أن الصحوة الإسلامية والتي بدأت في بداية سبعينيات القرن الماضي قد جعلت حواف علاقاتنا الاجتماعية أشدَّ حدة، إذ جعلت الفواصل بين المسلم وغير المسلم، وبين الملتزم وغير الملتزم أعرض وأعمق، وهذا من جهته أسَّس للتصنيف الذي نراه اليوم، ومن هنا فإن الجفاء والجفاف الشعوري الذي نشعر به داخل مجتمعاتنا الإسلامية لم يكن أكثره موجوداً لدى أجدادنا وأسلافنا، وهذا يعني أن الخطاب الذي أسَّسته الصحوة يحتاج أيضاً إلى نقد ومراجعة، وإن إسهامه في توليد أجواء العنف بادٍ للعيان.

٣- نحن بحاجة إلى استشعار كرامة الإنسان في كل علاقاتنا مع بعضنا، فالله ﷻ كرَّم بني البشر بقطع النظر عن عقائدهم وانتماءاتهم وأشكالهم، فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[1] وقال: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾[2]

١- سورة الإسراء: ٧٠
٢- سورة المائدة: ٣٢

إن قتل نفس واحدة يستجلب من مقت الله وسخطه ما يستجلبه قتل الناس جميعاً، فويل ثم ويل لمن يستهينون بدماء البشر، ويزهقون الأنفس البريئة! إن القرآن الكريم يريد أن يقول: إن المسألة ليست في عدد الأنفس المقتولة ولكن في المبدأ الإجرامي الذي يجعل المرء يقدم بسهولة على قتل نفس واحدة، إنه يريد أن يجعل هذا الأمر بعيداً عن مجرد الخطور في البال!

٤- من أهم ما تحتاجه بيئة الوسطية ذلك الميزان الدقيق والمنهج الشفاف في تقويم أفعال الناس وتحديد مواقفنا منهم، ونحن نعرف أن (التقوى) بما تشتمل عليه من صلاح فردي ونفعٍ للناس هي ميزان التفاضل بين الخلق، وهذا يعني أن نعامل الناس على أساس هذه القيمة، ونغض الطرف عن الاعتبارات الجزئية مثل الانتماء القبلي والطائفي والقطري والإقليمي ومثل مسائل الحسب والنسب والمصالح والمنافع المادية .. فالصواب صواب والخير خير بقطع النظر عمن يفعله، والشر شر والخطأ خطأ بقطع النظر أيضاً عمن يفعله، هذه الموضوعية تعني القيام لله تعالى بالقسط، كما أنها توفر قدراً كبيراً من الأريحية الاجتماعية، مما يجعل الجميع يشعرون بالإنصاف وبوجود أساس واضح لروز اتجاهاتهم ومكانتهم الاجتماعية.

٥- الاهتمام بالمشاعر باب عظيم من أبواب نزع فتيل العنف والتطرف من حياة المسلمين، لأنه يشكل خطاً دفاعياً متقدماً يحول دون الاندفاع للقتل والنهب والسلب الذي يقوم به بعض خوارج اليوم، وذلك لأن من الصعب أن يحرص المرء على عدم إيذاء زميله في العمل من خلال تعييره بنسبه أو الغمز واللمز بكفاءته، ثم يقوم بالتهجم عليه أوالشروع في قتله .

إن نبينا صلى الله عليه قد شق لنا طريقاً واسعاً في هذا، فقد صح عن جابر رضي الله عنه أنه قال:((مر بنا جنازة، فقام النبي ﷺ، وقمنا معه، فقلنا يا رسول الله:

إنها جنازة يهودي، فقال: أليست نفساً))[1] إن في القيام للجنازة نوعاً من المراعاة والمشاركة لأهل الميت في مصابهم، ونوعاً من الإسهام في بناء درجة من التكاتف الاجتماعي .

ومما روي في هذا الشأن أيضاً أن النبي صلى الله عليه قال لأصحابه بعد أن منح الأمان لعكرمة بن أبي جهل: ((سيأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمناً مهاجراً، فلا تسبوا أباه، فإن سبَّ الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت)) .

إن مراعاة المشاعر معنى حضاري متطور، ومن المعروف أن الناس كلما صعدوا في سلَّم الحضارة توقعوا من بعضهم مراعاة أكثر لمشاعرهم وظروفهم، وإن ما لدى الواحد منا من نباهة وتهذيب، يجعله يدرك ذلك بسهولة.

٦- الرفق شيء جوهري في إبعاد شبح العنف عن مجتمعاتنا لأنهما متضادان، فإذا كان العنف عبارة عن التعامل مع الأشياء من خلال القسوة والشدة وانطلاقاً من الغريزة وسوء الفهم، فإن الرفق يعني مقاربة الأشياء من خلال اللطف واللين والسهولة والأناة وحسن التفهم، وأكثر من يحتاجون إلى أن نعاملهم برفق ولطف هم المذنبون وذوو الاحتياجات الخاصة، والضعفاء من الرجال والنساء، وهذا لأن هؤلاء هم أكثر من يتعرضون للعنف والبغي والتجبر، وقد امتن الله تعالى على نبيه بما أكرمه الله به من اللين والرحمة فقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[2] وصح عنه ﷺ أنه قال: ((إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه))[3]

١- رواه البخاري .
٢- سورة آل عمران: ١٥٩
٣-: رواه مسلم

وقال: ((من أعطي حظَّه من الرفق، فقد أعطي حظه من الخير، ومن حُرم حظه من الرفق، فقد حُرم حظه من الخير))[1] أي أن نصيب المرء من الخير على مقدار نصيبه من الرفق. إن نبينا ﷺ كان لطيفاً جداً مع الذي جاء يستأذنه في الزنا ومع الذي بال في المسجد ومع أعرابي عنفه لزعمه أنه تأخر في قضاء دينه، وكان رفيقاً بالمؤمنين، ورفيقاً بأعدائه، كما كان رفيقاً بالحيوان، وحسبك ما نُقل عنه من دخول بغيّ الجنة لأنها سقت كلباً، وما ذكره من دخول امرأة النار لأنها حبست هرة عن الطعام ..

نريد للطف في تناول الأمور ومعالجة المشكلات وتلافي الأخطاء ... أن يسري في حياتنا كما يسرى الماء في العود الأخضر، وهذا يحتاج إلى أن نشعر أنه مسؤولية جماعية لا يُستثنى منها أحد.

٣- تشجيع النقد الذاتي:

تسيطر على الكثير من شبابنا مشاعر السخط واليأس والإحباط، وذلك بسبب الحالة الصعبة التي يعيش فيها معظم الشعوب الإسلامية، وإن كثيراً من هؤلاء الشباب يعتقدون أن الغرب هو سبب ما نحن فيه من بلاء، وبعضهم يعتقد أن العلمانيين والليبراليين هم السبب، وبعضهم يلقي اللوم على العلماء أوعلى الحكام، وهكذا وهكذا ... وإن بعضاً مما يقال في هذا السياق ليس بعيداً عن الصواب، لكن النقد المبهم وغير المحدد لا يحل أي مشكلة، وإنما يزيد في درجة الاحتقان الاجتماعي مما يدفع بعض الشباب إلى الاعتقاد بأن اللجوء إلى السلاح لتغيير الأوضاع هو الحل الوحيد، وإن منع النقد يشابه في آثاره السلبية توجيهه إلى فئة معينة، والمطلوب هو أن نمارس النقد الذاتي على المستوى الفردي وعلى مستوى

١- صحيح الجامع .

الأطر والمجموعات، ولا يصح استثناء أحد من هذا.

إن ممارسة النقد الذاتي تتيح لكل أهل اختصاص أن يتحدثوا عن مساهمتهم في الحالة التي وصلنا إليها، وعلى الشباب أن يدركوا أن ما نعانيه من علل ومشكلات لم يصنعه جيل أوجيلان، فبعض مشكلاتنا يعود إلى قرون مضت، وبالتالي فإن الخلاص منها يحتاج أيضاً إلى وقت، ولا شك في أن الشباب من جملة من تراهن عليهم الأمة في خلاصها.

لنقلل من لوم الآخرين لأنه لن ينفعنا في شيء، ولنركِّز على ما يمكننا القيام به مع الوعي بتشخيص ما نعاني منه بشكل دقيق.

٤ – الحوار ثم الحوار:

من أهم ما نحتاجه في معالجة اتجاهات العنف والتطرف في المجتمع الحوارُ بوصفه احتكاكاً بين العقول عوضاً عن الاحتكاك بين الأيدي أو بين الأسلحة.

– الحوار هو نوع من التلطف العقلي لأن كل واحد من المتحاورين يرسل رسالة للآخر، مضمونها: تعال لنبحث عن أرضية مشتركة تعصمنا من الدخول في حرب باردة أو ساخنة . الحوار عمل عقلي يهدف إلى تدوير الزوايا المعرفية حتى نضفي على الخلاف والاختلاف لوناً من النعومة والرفق .

- الحوار هو إطلاق إشارة بدء التواصل الفكري والروحي حتى نخرج من الجزر الفكرية التي عزلتنا فترات طويلة عن بعضنا، وحرمتنا بالتالي من نعمة العمل المشترك .

– الحوار يعني الرغبة في إدارة الاختلاف تفادياً للتصادم المدمر .

- الحوار عبارة عن مساهمة مقدرة في تحسين الوعي لأنني من خلال الحوار أضيء لك نقطة لا تراها وتضيء لي نقطة لا أراها .

- الحوار يعني أن قناعتي بأفكاري ليست نهائية، كما أن قناعتك بأفكارك ليست نهائية، لأن قبولي بالحوار يعني قبولي بالتغيير، وهذا هو المفهوم من قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[1] فمع أن المؤمنين موقنون أنهم على الحق، ومع هذا فإنهم يقولون للكافرين: تعالوا لنتحاور، فقد نكتشف أن الحق معنا، وقد نكتشف أن الحق معكم)[2]

- يكون الحوار مهماً للغاية عند وجود المشكلات العاصفة، وذلك من أجل تلافي انفجارها، وتلافي نتائجها المدمرة، وهذا على خلاف ما يقوم به بعض الناس من تحبيذ الحوار في أوقات الرخاء وإغلاق أبوابه في أوقات الشدة .

- يبدأ العنف حين يتوقف الحوار، ولهذا فإن استمرار الحوار صمام أمان في وجه العنف، ومن هنا فإن الحوار والجدال وتقليب الرأي على وجوهه المختلفة من سمات البيئة التي تحتضن الفكر المعتدل والاتجاه الوسطي،إننا في الحقيقة في حاجة إلى أطر ومؤسسات تكون مهمتها رعاية الحوار المجتمعي في كل شؤوننا، وينبغي أن تولي هذه المؤسسات عناية خاصة للحوار مع الشباب لأن أكثر ضحايا الغلو والتطرف منهم، والقرآن الكريم مملوء بالحوار، وقد أُفسح المجال فيه لإبليس وللكافرين وعتاة المجرمين للتعبير عن آرائهم، وذلك حتى يصبح الحوار جزئاً من ثقافتنا وأسلوب حياتنا، وإن الأسرة هي المحضن الأول لتأسيس

١- سورة سبأ: ٢٤

٢-: أو هنا ليست للشك، وإنما للتشكيك، أي هو تشجيع على الحوار والنقاش وليس للوصول إلى شيء جديد .

تلك الثقافة، ولدينا الكثير من الشواهد التي تؤيد الفكرة القائلة: في الأسرة تُبذر بذور الشخصية الرقيقة واللطيفة، وفي الأسرة أيضاً تُبذر بذور الشخصية العنيفة والغالية .

٥- التوعية بالعلاقات الحرجة:

عالم العلاقات هو عالم التعقيد والغموض، وهو عالم المكاسب والمخاطر في آن واحد، والحقيقة أن مجال العلاقات يكاد يكون أهم مجال في الحياة إلى درجة تسمح لنا بالقول: إن لكل شيء وجودين: وجود ذاتي ووجود علائقي، وإن كثيراً من الأشياء تتغير طبائعها بسبب العلاقات التي تدخل فيها مع غيرها، وفي سياق ما نحن فيه لو أن الغلاة قصروا غلوهم على حياتهم الشخصية لهان الخطب، ولما كانت ثمة حاجة لكثير مما نقوله هنا، لكن المشكلة أن الغلو بدأ فردياً على عهد النبي ﷺ، ثم لم يلبث كثيراً حتى تحوَّل إلى حركات احتجاج جماعية وذات طابع سياسي، ومن هنا فإن عالمنا الإسلامي يعاني اليوم أشد المعاناة من مواقف الغلاة من الحكام ومن غير المسلمين في داخل المجتمع الإسلامي وخارجه، كما أنه يعاني من مواقفهم من السياسيين والمجاهدين المسلمين بسبب مواقفهم السياسية وبسبب علاقاتهم بالفريقين السابقين، وسأتحدث عن كل ذلك بشكل مختصر:

- نظرة الغلاة إلى غير المسلمن ومواقفهم منهم:

لو نظرنا في الاتجاه العام لأهل الغلو عبر التاريخ الإسلامي لوجدنا أنهم يأخذون بالجانب الحاد والصلب من النصوص والأقوال والأحكام، ونحن نعرف أننا حين ندخل في التفريعات، فإننا نجد الكثير من الخلافات بين أهل العلم، وحين نصير إلى النوازل والأوضاع الجديدة، نجد الكثير من الفراغ الفقهي

والقانوني، مما يفسح المجال أمام الاجتهاد، وفي هاتين الحالتين يميل الغلاة إلى الأشد والأضيق ولاسيما فيما يتعلق بغير المسلمين، وذلك لأن روح الانتقام والتشفي والثأر هي الغالبة على حركات الغلو، و هم لا يبالون بما يترتب على هذا التوجه من الصد عن سبيل الله تعالى ولا بما يلحق المسلمين من أذى في بلادهم وفي البلاد غير الإسلامية .

- علاقتنا بغير المسلمين:

نعم إن العلاقة بين المسلمين وبين غيرهم لا تقوم على الحرب ومحاولة الإذلال والإخضاع، وإنما تقوم على السلام والدعوة إلى الله تعالى وحب الخير والتعاون على ما فيه مصلحة البشرية؛ والحرب شيء طارئ، ولا تقوم إلا لأسباب واضحة.

إننا أصحاب رسالة، ومهمتنا الكبرى في هذه الحياة هي تبليغ رسالة نبينا محمد ﷺ للعالمين، والدعوة إلى الدين القويم، فمن دعوناه إلى الإسلام، واستجاب، فهو أخونا، له ما لنا، وعليه ما علينا، ومن دعوناهم، إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لنا، لكنهم لم يقفوا في طريق الدعوة، ولم يقاتلوا الدعاة فهؤلاء علاقتنا معهم علاقة سلام وإحسان، وفي شأنهم قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾[1] وقال: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾[2] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ((القتال هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[3] وقال أيضاً: ((وأما النصارى فلم يقاتل رس ول الله ﷺ أحداً منهم حتى أرسل رسله بعد صلح الحديبية إلى جميع

١- سورة الممتحنة: ٨
٢- سورة الأنفال: ٦١
٣- سورة البقرة ١٩٠

الملوك يدعوهم إلى الإسلام، فدخل في الإسلام من النصارى وغيرهم من دخل، فعمد النصارى بالشام، فقتلوا من أسلم، فالنصارى هم حاربوا المسلمين أولاً، وقتلوا من أسلم منهم بغياً وظلماً، فلما بدأ النصارى بقتل المسلمين أرسل سرية، أمَّر عليها زيد بن حارثة .. وقال النووي: ((الناس صنفان، فأما الذين قاتلوا أهل الإسلام وأجلوهم عن أوطانهم، وأعانوا على شيء من ذلك، فمن الظلم المنهي عنه أن يتولاهم المسلمون، ويحسنوا إليهم، ولهؤلاء وأمثالهم شُرع القتال ليفسحوا للدعوة سبيلها، وأما الذين لم يفعلوا شيئاً من ذلك، فلا على المسلمين في الإحسان إليهم والبذل لهم، ولو كان هؤلاء (أي الذين لم يقاتلوا المسلمين) ممن أمر بقتالهم لما ساغ ذلك، فعسى أن يكون فيه قوة لهم مع أن إضعاف العدو بكل وسيلة من أخصِّ ما يُعني به المحاربون))[1] يريد رحمه الله أن يقول: لو كان الذين لم يقاتلونا، ولم يمنعونا من الدعوة إلى الله تعالى ممن ينبغي قتالهم لما ساغ لنا أن نحسن إليهم، إذ في ذلك نوع من التناقض. وقال الطبري: ((أجمعت الحجة على أن رسول الله ﷺ لم يقاتل أعداءه من أجل الشرك إلا بعد إظهاره الدعوة وإقامة الحجة، وأنه ﷺ كان يأمر أمراء السرايا بدعوة من لم تبلغه الدعوة))[2] .

العالم اليوم قد تغير، وقد صار في إمكاننا أن ندعو إلى الإسلام وبكل لغات العالم ونحن في بيوتنا، كما أن الدعاة إلى الإسلام يجوبون العالم من أدناه إلى أقصاه من غير أي تأشيرات دخول أو بها، وبعض الدول غير المسلمة، فيها من حرية فتح الإذاعات والمحطات الفضائية وحرية حركة الدعاة.. ما مكن المسلمين من الجهر بالحق، والدعوة إلى دينهم على نحو أفضل مما هو موجود في بعض البلاد الإسلامية على ما هو واضح لذي عينين مع الأسف الشديد!

---

١ – انظر في هذا وما قبله مقالاً بعنوان: هل الأصل في علاقة المسلمين بغيرهم السلم أم الحرب ؟ بقلم عبد الرحمن بن عبد العزيز العقل .

٢ – السابق ...

على كل حال فإن الجهات التي ترسم العلاقات الدبلوماسية وعلاقات الحرب والتجارة والتعاون والسياحة، إن الجهات التي تفعل ذلك هي الجهات الحكومية، وليس أفراد الناس، ولو تُرك ذلك لمن هبَّ ودبَّ لعمت الفوضى ولاتنشر الفساد في الأرض.

إن إعلان دولةٍ الحربَ على دولة أخرى من الأمور الخطيرة للغاية، والنجاح في أي حرب بات في غاية التعقيد، ولهذا فإن إعلان الحرب من اختصاص القائد الأعلى للقوات المسلحة والذي يُفترض فيه أنه يرى الصورة من كل جوانبها، ويعرف ما لديه، وما لدى عدوه، وهو لا يتخذ ذلك دون العودة إلى البرلمان أو مجلس الشورى ..

إن مشكلة الغلاة وكل محدودي الأفق أنهم يقيسون الأشياء المعقدة على الأشياء البسيطة، وتكون نتائج القياس كارثية بكل ما تعنيه الكلمة من معنى !

الشعوب الإسلامية تخوض اليوم صراعاً حضارياً مريراً، حيث إن كثيراً من الصفوة لدينا مفتونون بما أحدثه العالم الصناعي من تقدم على صعيد التنظيم والإبداع والتعليم والحفاظ على الصحة، أما عامة الناس فهم مفتونون بأسلوب العيش لدى الغرب على نحو خاص: أسلوب قضاء أوقات الفراغ وأسلوب التمتع بالحياة وما يشتمل عليه من لهو و الكثير من المخالفات الشرعية!

هذا كله يعني أن مشكلة المسلمين داخلية، وأنهم يحتاجون إلى بذل جهود هائلة في هداية شبابهم وتحصينهم من الغزو الثقافي الذي هبت رياحه علينا من كل حدب وصوب، قبل أن ينشغلوا بهداية العالم الخارجي مع أن سبله مذللة وميسرة.

لا أريد أن أترك هذه المسألة قبل أن أشير إلى أن في تعاليم ديننا وفي سيرة نبينا ﷺ الكثير والكثير من الحث على جعل الإحسان إلى المخالفين من أهل الكتاب وغيرهم من المشركين والرفق بهم والحفاظ على أفضل العلاقات معهم الوسيلةَ الأساسية إلى هدايتهم للدين القويم وتأسيس التعايش معهم.

الإحسان إلى المخالفين:

١- ليس في بلاد المسلمين اليوم أهل ذمة، فعقد الذمة انتهى من مئات السنين، وليس هناك من يدفع الجزية، وإنما هناك معاهَدون ومستأمَنون، وأهل كتاب وغيرهم وبعض ما سنذكره من نصوص يشمل الجميع، وبعضه خاص، وعلى كل حال فالحريص على أن يُدخل الناس في دين الله لن يكون أمامه سوى أن يجسِّد تعاليم الإسلام في سلوكه، وأن يكسب قلوب العباد بالإحسان إليهم والشفقة عليهم وخدمتهم، وهذه من أنجح الأساليب الدعوية التي أسلم بسببها الملايين في أنحاء الأرض .

٢- حذر ﷺ أشد التحذير من قتل الذمي والمعاهَد وإيذائهما، حيث صحَّ عنه ﷺ أنه قال: ((من قتل معاهَداً لم يرِح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً))[١] قال ابن حجر: المراد به من له عهد مع المسلمين سواء كان بعقد جزية أو هدنة من سلطان أو أمان من مسلم .

٣- روي عنه ﷺ أنه قال: ((من ظلم معاهَداً أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة))[٢]

١- رواه البخاري .
٢- رواه أبو داود . وقد ورد هذا المعنى بصيغ مختلفة يقوِّي بعضها بعضاً

٤- سيرته العملية في التعامل مع غير المحاربين من غير المسلمين تقوم على البر والقسط والرحمة والحرص على هدايتهم، وقد أخرج البخاري أن غلاماً يهودياً كان يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: أسلم، فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: ((الحمد لله الذي أنقذه من النار))[١]

صبي يهودي يخدم النبي ﷺ، والنبي يعوده في مرضه، ووالد الصبي يأمره بطاعة النبي، ما الذي يدل عليه كل هذا ؟ وقد صحَّ أن اليهود كانوا يتعاطسون (أي يتكلفون العطاس) عند النبي ﷺ رجاء أن يقول لهم: يرحمكم الله، فكان يقول: ((يهديكم الله ويصلح بالكم))[٢] وصح أنه ﷺ مات ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسقاً من شعير))[3] فهذا يعني أنه كان ﷺ يتعامل معهم[٤].

٥- أوصى عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين حضرته الوفاة الخليفةَ من بعده بقوله: ((وأوصيه بذمة الله وذمة رسول الله ﷺ أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلَّفوا إلا طاقتهم))[٥] إن توصية أمير المؤمنين بالإحسان إلى أهل الكتاب والوفاء لهم بعهودهم وهو في ساعات الوداع الأخيرة دليل قوي على اهتمام أئمة المسلمين بالحفاظ على حقوق أهل الذمة وعدم إيقاعهم في الحرج، ومثل هذا لا يكاد يوجد لدى أي أمة من الأمم لا في القديم ولا في الحديث .

٦- فسَّر القرافي معنى(البر) الوارد في قوله تعالى:﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ

١- رواه البخاري
٢- رواه البخاري
٣- رواه البخاري .
٤- انظر بحثاً للدكتور رضا أبو الشامة بعنوان: من سيرته ﷺ: العدل والإحسان مع أهل الكتاب . منشور على النت .
٥- رواه البخاري

يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾[1]

فسره بقوله:((هو الرفق بضعيفهم وسدُّ خلَّة فقيرهم وإطعام جائعهم وكساء عاريهم ولين القول لهم على سبيل التلطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة واحتمال أذيتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفاً منا بهم لا خوفاً ولا طمعاً، والدعاء لهم بالهداية، وأن يُجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم، وحفظ غيبتهم إذا تعرَض أحد لأذيتهم وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم وإيصالهم إلى جميع حقوقهم))[2]

وهذا واضح وغني عن أي شرح ! .

إن انطلاقنا من مبدأ أننا ندور مع الحق ضد الباطل ومبدأ كون العلاقة بمن يخالفنا في المعتقد، هي علاقة سلام وتعاون ما لم نكن معه في حرب يؤسس للمواطنة الحقة التي يصعب من غيرها نهوض أي بلد وعيشه في أمان واستقرار واستقلال، وإن موقف الغلاة من غير المسلمين يجافي روح الإسلام ووصاياه وأدبياته، وهو يهدم ولا يبنى ويحشد علينا الأعداء .

- خطأ الغلاة في موقفهم ممن يقيم علاقات مع غير المسلمين .

نحن نعيش في عالم (الاعتمادية) الظاهرة حيث يصعب على أي دولة أو أي شعب مهما بلغ من القوة والعظمة أن يستغني عن الشعوب الأخرى، وقد وصل الأمر في هذا الشأن إلى أن السيارة أو الطيارة الواحدة باتت تصنع لدى عدد من

١- سورة الممتحنة: ٨

٢- انظر كتاب حقوق غير المسلمين في بلاد الإسلام: ٦٣، ٦٤

. إن من اللطيف ما ذكره ابن القيم من جواز أن يوقف مسلم على ذمي وقفاً يصرف ريعه إليه، وهذا في منتهى الرقي واللطف !

الشركات بحسب اختصاص كل شركة ومهاراتها. في هذا الزمان يريد أهل الغلو لأهل الإسلام أن يعزلوا أنفسهم عن العالم على قدر الاستطاعة، ومن ثم فإنهم ينظرون بعين الريبة لكثير من العلاقات التي يحتاجها المسلمون مع غير المسلمين، ومن السهل جداً على الغلاة والخوارج الرمي بالكفر والزندقة والردة والخيانة لكل من يخالف آراءهم وأهواءهم، وحجتهم الدائمة هي موالاة الكافرين والتعاون معهم وتأييدهم على المسلمين؛ ولعلي أوضح في هذا السياق الأمور الآتية:

١- أصل الموالاة هو الحب، كما أن أصل المعادة هو البغض، ويترتب على الحب في العادة التقارب والاتفاق والمعاونة، كما أنه يترتب على البغض التباعد والاختلاف والتضاد في المواقف، وقد اتفق أهل العلم على أن الموالاة التامة للكفار بالرضا عن دينهم وتصحيح مذهبهم أو حب ظهور الكفر على الإسلام وما شابه ذلك، هو من الردة والخروج من الملة .

٢- مسلم لا يوالي الكفار موالاة تامة، ولا يتقرب منهم بسبب ديانتهم وما هم عليه، لكنه يناصرهم على المسلمين، ويقدم لهم الدعم والمعونة لمصلحة أو لغرض دنيوي، هل ما يقوم به هذا المسلم يوقعه في الكفر والردة ؟

بعض أهل العلم قالوا: إن هذا من الكفر، وقد ذهب إلى هذا القول الطبري وغيره حيث قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ﴾[1]: فإن من تولاهم ونصرهم على المؤمنين، فهو من أهل دينهم وملتهم. وذهب بعض أهل العلم إلى أن موالاة الكفار ومعاونتهم على المسلمين لا تكون كفراً بمجرد الفعل ما لم يصاحبها رضا بدينهم أوتصحيح مذهبهم أوحب ظهور الكفر على الإسلام، وهذا هو ظاهر كلام ابن تيمية رحمه الله حيث قال فيمن يقاتل المسلمين مع التتار:

١- سورة المائدة: ٥١ .

((وأيضاً لا يقاتل معهم غيرَ مكرهٍ إلا فاسقٌ أو مبتدع أو زنديق)) وقال: ((كل من قفز إليهم من أمراء العسكر وغير الأمراء، فحكمه حكمُهم، وفيهم من الردة عن شرائع الإسلام بقدرما ارتد عنه من شرائع الإسلام))[1].

٣- ذهب عامة العلماء إلى أن التجسس للكفار على المسلمين من الكبائر والمعاصي التي لا تُخرج من الملة مع أن الله تعالى سماه في كتابه موالاة حين قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾[2] واستدلوا بقصة حاطب بن أبي بلتعة المشهورة، وقد قال شارحو البخاري من أمثال ابن بطال والقسطلاني وابن حجر ما معناه: إن الجاسوس قد يكون مؤمناً، وليس تجسسه مما يخرجه من الإيمان .

٤- ليس من موالاة الكفار في شيء اللقاءُ بهم أو التعاون معهم على مصلحة مشتركة فيها خيرٌ للمسلمين، كما أن التفاوض معهم في أمر من الأمور ليس من الموالاة في شيء أيضاً.

إن الغلاة لا يعيرون أي اهتمام لكل هذه التفاصيل، ويجعلون أي نوع من التواصل والتفاوض بين المسلمين وغير المسلمين نوعاً من موالاتهم الموجبة للكفر، وهذا من الضلال المبين، وطالما سارع الغلاة إلى تكفير من يسمونهم علماء السلاطين بسبب فتوى صدرت منهم مع أنك ترى معي كيف ذهب عامة علماء الإسلام إلى عدم تكفير من يتجسس على المسلمين للكفار، مع أنه ذنب من أعظم الذنوب، وهل يقارَن هذا مع من يقترب من حاكم ظالم، أو يسوِّغ له بعض تصرفاته ؟ !

٣- انظر فتوى: هل موالاة الكفار كفر بإطلاق ؟ الفتوى صادرة عن المكتب العلمي لهيئة الشام الإسلامية . منشورة على النت .

٢- سورة الممتحنة: ١ .

- تكفير الغلاة لحكام المسلمين:

ذكرت فيما مضى أن تكفير المسلم شيء خطير للغاية بسبب تحذير الشريعة الغراء منه وبسبب الآثار المدمرة التي يتركها في الحياة الإسلامية، ومن المعروف أن الخوارج القدامى ذهبوا إلى تكفير مرتكب الكبيرة، مما يعني إخراج جمهور عريض جداً من المسلمين من دائرة الإسلام، كما أن القوم ركزوا في مفاصلة أهل السنة تركيزاً شديداً على مسألة (الحاكمية) وما يتعلق بها غاضين الطرف عن الأدلة الكثيرة الواردة وعن أقوال أهل العلم في هذا الشأن، لأن الغلاة يملكون تفكيراً خشبياً مشفوعاً بالغرور والكبر!

الغلاة والخوارج الجدد ساروا على نهج أسلافهم في تكفير الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله تعالى نازعين في ذلك نحو الإجمال ومعرضين عن النصوص الكثيرة الدالة على الفصل بين الإيمان بصلاحية المبادئ والأحكام الشرعية للحكم وبين ترك العمل بها بسبب ضغوط داخلية أو خارجية أو بسبب هوى أو مصالح مادية أو بسبب موازنات بين المصالح والمفاسد ..

وهذا تناول مبسَّط لهذه المسألة:

١ - قال الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[١] وقال سبحانه: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[٢] وقال: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[٣] ذهب ابن جرير الطبري وعدد من المفسرين إلى أن الآيات الثلاث نزلت في كفار أهل الكتاب لأن

١ - سورة المائدة ٤٤.
٢ - سورة المائدة:٤٥
٣ - سورة المائدة ٤٧

ما قبلها وما بعدها من الآيات نزل فيهم، وهم المعنيون به، ومع خصوص السبب في نظر الطبري إلا أن اللفظ يظل على عمومه، وهكذا فإنه يرى أن كل من لم يحكم بما أنزل الله تعالى جاحداً به هو كافر.

٢- روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن طاووس وعطاء وأبي مجلز من التابعين القول: إن المراد بكفر من لم يحكم بما أنزل الله هو الكفرالأصغر الذي لا يُخرج من الملة، وعبارة ابن عباس: ((إنه ليس كفراً ينقل عن الملة، إنه كفر دون كفر)) . وذُكر عن ابن عباس أنه قال: هي كبيرة، وقال طاووس: وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله. وروي عن عطاء أنه قال: كفر دون كفر .

٣- ذهب جماهير أهل العلم إلى أن من ترك الحكم بما أنزل الله جاحداً له أو مفضلاً للقوانين الوضعية عليه، فهو كافر، أما من تركه لهوى أو مصلحة شخصية أو بسبب التهاون وعدم الاكتراث ... فهذا ظالم وفاسق وليس بكافر . هذا يعني أن معتقد الحاكم في صلاحية الشريعة هو الفيصل في الحكم عليه بالكفر أوالفسق والظلم، وهذا منقول عن عدد لا يكاد يحصى من العلماء الأثبات في كل العصور الإسلامية.

٤- الحاكم المسلم في زماننا هذا وفي كل زمان مطالب بالعمل على أن تكون كلمة الله تعالى هي العليا، كما أن عليه أن يحكِّم الشريعة في كل شؤون الحياة ما وجد إلى ذلك سبيلاً، والله تعالى لا يكلفه ما لا يطيق من ذلك، وله أن يتدرج في التطبيق، كما فعل الحاكم الصالح عمر بن عبد العزيز، ونحن نعرف أن ابنه عبد الملك قال له يوماً: ((إني لأراك يا أبتاه قد أخرت أموراً كثيرة كنت أحسبك لو ولِّيتَ ساعة من نهار عجلتها، ولوددت أنك قد فعلت ذلك ولو فارت بي وبك القدور! قال له عمر: أي بني إنك على حسن قسم الله لك، وفيك بعض رأي أهل

الحداثة والله ما أستطيع أن أخرج لهم شيئاً من الدين إلا ومعه طرف من الدنيا أستلين به قلوبهم خوفاً أن ينخرق عليَّ منهم ما لا طاقة لي به))[1] .

إن على الحاكم المسلم وهو يحاول تطبيق الشريعة أن يطبق منها ما لا يترتب على تطبيقه مفسدة أكبر من مفسدة ترك التطبيق كما لو أدى منع الربا أوالخمر إلى زوال الحكم كله وحلول من لا يحكِّمون الشريعة لا في القليل ولا في الكثير، والحاكم في اجتهاده المبني على الخبرة واستشارة أهل الاختصاص مأجور إن أخطأ، وله أجران إن أصاب.

يقول ابن تيمية رحمه الله في النجاشي رضي الله عنه: ((والنجاشي وإن كان ملك النصارى، فلم يطعه قومه في الدخول إلى الإسلام، بل إنما دخل معه نفر منهم، ولهذا لما مات لم يكن هناك من يصلي عليه، فصلى عليه النبي ﷺ بالمدينة، خرج بالمسلمين إلى المصلى، فصفَّهم صفوفاً وصلى عليه، وأخبرهم بموته يوم مات، وقال: «إن أخاً لكم صالحاً من أهل الحبشة، مات» كثير من شرائع الإسلام أو أكثرها لم يكن دخل فيها لعجزه عن ذلك، فلم يهاجر، ولم يجاهد، ولا حجَّ البيت، بل قد روي أنه لم يكن يصلي الصلوات الخمس، ولا يصوم شهر رمضان، ولا يؤدي الزكاة الشرعية،لأن ذلك كان يظهر عند قومه، فينكرونه عليه، وهو لا يمكنه مخالفتهم، ونحن نعلم قطعاً أنه لم يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن...))[2] ننتهي من كل هذا إلى أن على الغلاة العودة إلى ما قرره أهل العلم في شأن التارك للحكم بما أنزل الله، ففيه تفاصيل كثيرة، ولاسيما أن الأمة تعيش في مرحلة استضعاف، وإن للاستضعاف فقهه الخاص والذي يقوم في كثير من الأحيان

١- انظر مفهوم التدرج في تطبيق أحكام الشريعة للدكتور عطية فياض، بحث منشور على النت
٢- هامش انظر الفتاوى/ ١٩/ ٢١٧, ٢١٨ وقد تحدث عن هذا في غير موضع من فتاواه

على فقه الضرورة والموازنة بين المصالح والمفاسد، وإن المسارعة إلى الحكم بكفر الحكام يناقض الوعي بالشريعة، كما يناقض الخوف من الوعيد الشديد الوارد فيمن كفَّر مسلماً بغير حق .

٦- المعالجات الصارمة للغلو:

علينا أن نقول في البداية: إن هناك فرقاً بين الغلو الفردي والغلو الجماعي المنظم، فالغلو الفردي يكون ضرره محدوداً للغاية، وقد يقتصر على صاحبه، أما الغلو الجماعي، فإنه في كثير من الأحيان يشكِّل بيئة لتكوين الميول في اتجاه القيام بالأعمال العنيفة والإرهابية، وهنا مكمن الخطورة الحقيقية، وعلينا إلى جانب هذا أن نقول: إن التاريخ يعلمنا أن العقيدة لا تكفي بمفردها لتكوين حركات احتجاجية عنيفة، وذلك لأن الانخراط في أعمال إرهابية يضحِّي فيها المرء بحياته أو وظيفته أومستقبله .. يحتاج إلى درجة من الغليان العاطفي والمشاعر الثأرية والانتقامية لا تقوى العقيدة على توفيرها في العادة، وبالطبع هناك دائماً في مثل هذه الأمور استثناءات ملموسة. هذا كله يعني أن ما يراه الغلاة من عسف وظلم وتجاوز للقانون والعرف الاجتماعي قد يكون هو المحرك الأكبر لهم للانخراط في الأعمال الإرهابية والعنفية، وهذا يعني أن معالجة مشكلات الغلو والعنف يجب أن تُعالج بقدر كبير من البصيرة والحكمة وفي مواكبة أعمال إصلاحية كبيرة .

ملاحظات عامة:

١- حين يقوم بعض الأشخاص بمخالفة القوانين السارية في حيازة الأسلحة، أو يقومون بوضع خطط مكتوبة لمهاجمة أفراد أو مؤسسات أو يباشرون شيئاً من الأعمال العنيفة ...فإنه لا يكون أمام أي دولة سوى اللجوء إلى المعالجات الأمنية،

فالإرشاد والنصح والحوار مهم جداً في معالجة الغلو والتطرف، لكن الواقع يشهد بأن هناك من لا تنفع معه إلا العقوبات الرادعة، ولهذا فإن من الطبيعي أن نرى ملاحقة الذين يقومون بأعمال عنف في أي مكان من الأرض.

٢- نحن نؤمن أن الطبيعة تكره الفراغ، ولهذا فإن التضييق على الأعمال الدعوية سيفسح المجال للفكر المغالي، ومن هنا فإن تشجيع الفكر الوسطي المعتدل يساعد على نحو ما على انكماش الفكر المتطرف، وشواهد هذا موجودة في كثير من البلاد.

في بعض البلاد رأت الحكومة مقاومة الغلو بنشر الفكر العلماني المتطرف أو إتاحة الساحات له وهذا أدى إلى عكس المراد، لأن التطرف في أي اتجاه يُغري بالتطرف في الاتجاه المعاكس، كما أنه يؤدي إلى تقسيم المجتمع وإضعاف القواسم الوطنية المشتركة، وهذا شيء سيِّئ بكل المعايير. الفكر المعتدل الراشد المتزن هو الذي يضيِّق مسالك الغلو، ويجذب العدد الأكبر من الشباب .

٣- عند التعامل مع الغلاة والمتطرفين لا بد من التفريق بين نوعين من التطرف: التطرف النظري المقتصر على الرأي والجدل النظري، والقناعات الشخصية والتطرف الفكري الذي ذهب بأصحابه إلى ممارسة العنف والتحريض السافر عليه. التطرف النظري يعالَج بالحوار، ويعالج أيضاً بحرمان أصحابه من نشر فكرهم عبر وسائل الإعلام المختلفة من أجل حماية المجتمع من جرثومة الغلو، وإن التضييق على هذا الفريق ينبغي أن يظل ضمن حدود معينة، وإلا كان من السهل عليهم الانتقال إلى الفريق الآخر والانخراط في أعمال العنف.

٤- التعامل الحازم والصارم مع الغلاة هو الأسهل، ونتائجه الملموسة أسرع، لأن من يستخدم الشدة يشعر وكأنه قطع جذع شجرة مُرة، لكن الحقيقة أن الجذور

ما زالت تعمل في الأعماق لتنبت الكثير من الأشجار الرديئة، وقد أثبتت الأيام أن معالجة الغلو تحتاج إلى عمل استراتيجي يقوم على تغيير المفاهيم، كما يقوم على تحويل البيئة العامة من بيئة تساعد على نمو الغلو إلى بيئة تنبذه، وتقاومه، ولهذا فإن الحل الأمني لمشكلة العنف ينبغي أن يكون بمثابة الدواء المسكِّن، أما الدواء المعالج، فهو دواء فكري إعلامي إصلاحي بعيد المدى.

٥- من الواضح أن هناك نوعاً من التلازم بين نقص المعلومات واللجوء إلى القوة المفرطة في التعامل مع التطرف والمتطرفين، إذ كلما كان لدى الأجهزة الأمنية معلومات أكثر كانت حاجتها إلى القسوة في الاستجواب وانتزاع الاعترافات أقل، وهذه حقيقة عالمية، ومن هنا فإن جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن المجرمين ومرتكبي أعمال العنف يصبح مطلباً شرعياً وأخلاقياً لأنه يقلل من الحاجة إلى استخدام القسوة، ولأنه الأنفع والأصلح، ولا بد في هذا الإطار من التثبت والتأكد من صحة المعلومات حتى لا يُظلم أحد.

٦- الفكر الإسلامي الوسطي هو مشروع أمة وحاجة عامة، وذلك لأن الجهل بمقاصد الشريعة الغراء وأحكامها وآدابها، يسهِّل على الغلاة جذب الشباب إليهم من خلال الشعارات الزائفة، ومن خلال العواطف والأُمنيات الخادعة، ومن هنا فإن حرمان الغلو من البيئة الحاضنة يعدّ شيئاً جوهرياً، وهذا يكون من خلال التوعية العامة بفضائل الوسطية والاعتدال، لكن هذا يدعونا إلى التفكير في تحديد مفهوم الإرهاب والغلو بشكل واضح، وأن نحدد ملامح الغلو الذي هو عبارة عن نزعة شخصية، أو يتصل بحرية الرأي وبين الغلو الذي يشكل خطراً على دين المرء وعلى سلامة المجتمع، وإنما أقول هذا الكلام لأن جعل الغلو والتطرف في بؤرة اهتمام المجتمع من غير التحديد الذي أشرت إليه، قد يؤدي إلى تناول

الموضوع بشكل مبتذل ومجانب للواقع وللصواب، وهذا قد يتسبب في شيء من الفوضى الفكرية والاجتماعية.

٧- الشباب الغالي والمتطرف هم بمعيار من المعايير عبارة عن ضحايا لبعض الظروف أوالخديعة من جهة أو طرف من الأطراف، ولهذا فلا بد من التفكير في استيعابهم، وأول مبادئ الاستيعاب يتمثل في شعورهم بأنهم ليسوا مستضعَفين أو مستهدَفين من قبل أحد، وهذا يتطلب من كل الأجهزة الإعلامية والأمنية الالتزام بالصدق والموضوعية في كل المعلومات التي يتم نشرها حول الغلاة والمتطرفين والأعمال التي يقومون بها، وهذه نقطة مهمة على طريق المعالجة لهذه الحالة الخطرة .

٨- حتى تكون معالجة الغلو مثمرة وفعالة، فلا بد من أن يقترن فيها الهاجس الأمني بالهاجس الحقوقي والأخلاقي، بمعنى أن علينا ونحن نسعى إلى الحفاظ على أمن المجتمع من الهجمات الإرهابية أن نهجس بما كفلته الشريعة وما كفلته النظم السارية من احترام الخصوصيات الفردية والحريات وحق التعبير، لأن كثيراً من النجاح في التعامل مع الغلو منوط بالتوازن الدقيق بين الأعمال الفكرية والقانونية والاجتماعية والإعلامية وبين الإجراءات والأدوات الخشنة والصارمة، وهذه الملاحظة أشار إليها الكثير من الدراسات العالمية حول مواجهة التطرف .

٩- البعد عن المعالجة الحكيمة والمنضبطة لمشكلات الغلو والإرهاب أدخل العديد من دول العالم في حلقة مفرغة وفي دورة معيبة خانقة حيث صار هدر الكرامة الإنسانية والتعذيب النفسي والبدني هو الأساس في التعامل مع الذين يقومون بأعمال إرهابية، وهذا يعني أن المزيد من العنف سيعني المزيد من التعذيب والذي سيعني المزيد من العنف..، بل إن التعذيب الرهيب الذي تعرض له بعض

الشباب في الكثير من السجون والمعتقلات قد دفع بهم إلى تكفير الحكومات والمجتمعات، مما جعلهم لا يشعرون بالذنب وهم يقتلون النساء والأطفال والأبرياء من خلال أعمالهم العدوانية والانتحارية .

أنا هنا لا أريد التحدث عن بعض صور التعذيب التي يندى لها جبين الإنسانية، فهي مشهورة ومعروفة، لكني أود الإشارة إلى الآثار النفسية الرهيبة التي يتركها التعذيب لدى كثير من المعتقلين والمسجونين حيث يتعرض بعضهم للإصابة بما يسمى (كرب ما بعد الصدمة) والذي يتمثل في الشعور بالقلق والخوف والأرق والشعور بفقد الأمل وفقد القدرة على الشعور بالذات وضعف القدرة على مواجهة الأزمات، إنه نوع من الإعاقة النفسية الخطيرة، وهذا يعني تدمير حياته الشخصية وتدمير حياة أسرته أيضاً، ولهذا فإن تقدم العالم في مواجهة التطرف والإرهاب محدود أو معدوم، وإن إهدار الكرامة الإنسانية من الأسباب الجوهرية في ذلك، ومن هنا فإن من المهم أن تخضع السجون للإشراف القضائي ولجان حقوق الإنسان والقيام بكل الإجراءات الممكنة من أجل الحيلولة دون وقوع ما أشرت إليه.

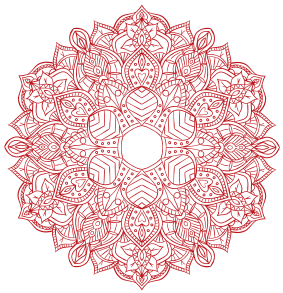

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد:

فإن ظاهرة الغلو، وما يترتب عليه من تطرف وقتل وتخريب، من الظواهر شديدة التعقيد، إذ يختلط فيها الفطري بالمكتسب والخاص بالعام والمعنوي بالمادي، ولو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا أن من الباحثين من كانوا يرون أن الفقر هو السبب في ذلك، فإذا بأبناء الأثرياء جداً يلتحقون بداعش والقاعدة وغيرهما، وكان بعض الباحثين يرون أن مناهج التعليم في بعض الدول الإسلامية هي السبب،فإذا بألوف الشباب الذين درسوا في جامعات أوربية وعلمانية يفعلون الشيء نفسه، وكان بعض الباحثين يرون أن التربية المتزمتة والمغلقة في بعض الأسر المسلمة هي المسؤولة عن ذلك، فإذا بشباب تربوا في أسر ليبرالية يقومون بتفجير أنفسهم لتدمير الآخرين !

قد يكون من الصواب القول: إن لكل واحد من الغلاة أسبابه الخاصة فيما يقوم به، ولهذا فإن المعالجة يجب أن تكون للبيئة العامة التي تحرِّض على العنف،

وقد تحدثنا مطولاً عن ذلك.

من المهم في معالجة العنف أن نؤكد على أن الغلو نقص في التدين، وقد يصل إلى الخروج من الملة على نحو نهائي، ونحن نعرف أن أئمة كباراً ذهبوا إلى تكفير الخوارج استناداً إلى بعض النصوص، والحقيقة أن الغلو فوق أنه خارج عن هدي النبي ﷺ، يشوه المركَّب العقلي والنفسي لأصحابه، ومن النادر فعلاً أن ترى متطرفاً غير مغرور بنفسه أو غير متكبر، أو يستطيع التفكير بطريقة موضوعية منهجية .

لن يكون هذا الكتاب كافياً في تفكيك ظاهرة الغلو ومعالجتها، فالموضوع شائك جداً، والطريق أمامنا طويل وطويل، وحسبي الإسهام والمشاركة .

أود في الختام الإشارة إلى التكرار في بعض المعاني والشواهد الذي وقع في هذا الكتاب بسبب طبيعة الموضوع، حيث إني وجدت نفسي مضطراً إلى ذكر بعض الأفكار في حال توصيف الظاهرة ثم التأكيد عليها عند علاجها، وقد كان في الإمكان تلافي بعض ذلك على الأقل، لكنني أعترف بالتقصير والقصور!! .

اللهم اهد شبابنا إلى الحق، وأصلحهم، وأصلح بهم، وهيِّئ لنا من أمرنا رشداً.

والحمد لله رب العالمين .

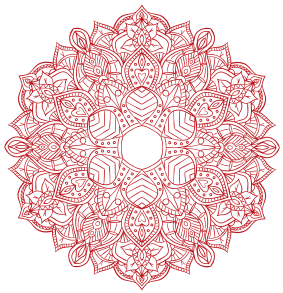

مراجع مختارة

- إعلام الموقعين عن رب العالمين لابن قيم الجوزية لبنان دار الكتب العلمية طبعة أولى عام ١٩٩١ .
- الإرهاب: التشخيص والحلول بقلم الشيخ عبد الله بن بيه، القاهرة مؤسسة الريان طبعة ثانية عام ٢٠٠٥.
- الأحاديث المسندة الواردة في الخوارج، د.عبد العزيز الأمين، الرياض مكتبة الرشد .
- أزمة الهوية والتعصب، تأليف هاني الجزار، مصر، هلا للنشر والتوزيع، طبعة أولى عام ٢٠١١ .
- الأنماط الثقافية للعنف، تأليف باربرا ويتمر، ترجمة ممدوح عمران، الكويت سلسلة عالم المعرفة عام ٢٠٠٧.
- حقوق غير المسلمين في بلاد الإسلام، تأليف د . صالح العايد، السعودية وزارة الشؤون الإسلامية، الطبعة الرابعة عام ٢٠٠٨ .
- رفع الملام عن الأئمة الأعلام، تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، السعودية الرئاسة العامة لإدارات البحوث والدعوة .. عام ١٩٩٣ .
- شبهات تنظيم الدولة الإسلامية، د . عماد الدين خيتي، الطبعة الأولى، عام ٢٠١٥ .
- ضرورة الاطلاع على خلاف العلماء، د . يوسف القرضاوي، مقال منشور على النت .
- فتاوى الثورة السورية، إعداد المكتب العلمي لهيئة الشام الإسلامية، الطبعة الثانية عام ٢٠١٤ .
- فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، السعودية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف عام ١٩٩٥ .
- المعالجة الثقافية لظاهرة التطرف بقلم أنور الجمعاوي، مقال منشور على النت .
- مفهوم التدرج في تطبيق الشريعة الإسلامية بقلم د. عطية فياض. بحث منشور على النت.
- مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد السلام الشدادي المغرب، طبعة أولى عام ٢٠٠٥.
- من سيرته ﷺ العدلُ والإحسان مع أهل الكتاب، بقلم رضا أبو شامة، بحث منشور على النت.

فهرس

الموضوع	رقم الصحة
مقدمة.	٣
وعي الظاهرة.	٥
ما الغلو ؟	٥
أنواع الغلو .	٧
جذور الغلو .	١١
الغلو: الوجه الآخر.	١٤
خطورة الغلو .	١٥
أحاديث في الخوارج .	١٦
وقفة تحليلية.	١٨
نسبية الغلو.	٢٢
البنية الفكرية للغلاة:	٢٤
1 – الخلفية الاجتماعية.	٢٥
2 – الافتقار إلى النظرة الموضوعية .	٢٦
3 – تقديس القوة.	٢٧
4 – العجلة في إطلاق الأحكام.	٢٩
5 – بيئة للظنون والأوهام.	٣٠
6 – النظرة المثالية.	٣٢
البنية النفسية لدى الغلاة:	٣٤
1 – الانحراف الفكري أولاً	٣٥
2 – الإحباط .	٣٥
3 – الشعور بالنقص	٣٥

4 – تقليد القاهر .	٣٦
5 – هشاشة عامة .	٣٦
6 – ضيق دائرة الانتماء .	٣٧
7 – الشعور بالحصار	٣٨
8 – الشعور بالاستعلاء .	٣٨
أسباب ظاهرة الغلو:	٤١
1 – الجهل بالشريعة:	٤٢
أ – نصف طالب علم .	٤٢
ب– الجهل بمقاصد الشريعة	٤٤
ج – غياب النظرة الفقهية المقارنة .	٤٥
د – ضرب قيمة التسامح	٤٨
هـ – وسوسة الطائفة المنصورة .	٥٠
2 – القصور الفكري:	٥٢
أ – غياب الفكر الوسطي	٥٢
ب – التخلف الحضاري .	٣٥
ج – الجهل بالواقع وسنن التغيير	٥٥
د – المفاهيم المغلوطة:	٥٦
– تكفير من لم يحكم بما أنزل الله	٥٧
– الخلط في مفهوم الجماعة .	٥٨
– تحويل البيعة الخاصة إلى بيعة عامة .	٥٩
ـ الفهم الخاطئ للولاء والبراء .	٥٩
٣– التشوه الثقافي:	٦٢
أ – التعصب .	٦٣
ب– الإحباط الاجتماعي.	٦٥
ج– ثقافة النمط الواحد .	٦٦
د– تقديس الماضي	٦٧
هـ– الشوفينية الاجتماعية	٦٩
٤ – التأزم النفسي .	٧٠
أ – الشعور بالإهانة.	٧١
ب– الشعور بالعجز.	٧٢

ج- طلب التطهر.	٧٢
د – البواعث الشخصية .	٧٣
كيف نتعامل مع الغلو ؟	٨١
١ – التحذير من خطورة الغلو.	٨٢
٢ – الانتصار في معركة المفاهيم	٨٦
أ – مكافحة التفكير الشمولي	٨٧
ب – بيان سماحة الشريعة .	٨٨
جـ – الثقافة السننية:	٩٠
نماذج وأمثلة:	٩١
١ – النظر إلى العواقب	٩١
٢ – تجاهل فقه التدرج	٩٢
٣ – التفريق بين أدوات البناء وأدوات الهدم	٩٣
٤ – القوة العسكرية بنت القوة الاقتصادية .	٩٣
٥ – الحكم الإمبراطوري .	٩٤
٣- بيئة للوسطية:	٩٥
- ملامح بيئة الوسطية	٩٦
١ – الإيمان بحق الاختلاف .	٩٦
٢ – إحياء البعد الإنساني في خطابنا:	٩٨
ما المقصود بالبعد الإنساني؟	٩٨
٣- تشجيع النقد الذاتي .	١٠٢
٤ – الحوار ثم الحوار .	١٠٣
٥ – التوعية بالعلاقات الحرجة .	١٠٥
- نظرة الغلاة إلى غير المسلمين ومواقفهم منهم .	١٠٥
- علاقتنا بغير المسلمين .	١٠٦
- الإحسان إلى المخالفين:	١٠٩
- خطأ الغلاة في مواقفهم ممن يقيم علاقات مع غير المسلمين .	١١١
- تكفير الغلاة لحكام المسلمين:	١١٤
٦ – المعالجات الصارمة للغلو:	١١٧
– ملاحظات عامة .	١١٧
– الخاتمة .	١٢٣